

صوت أبي العلاء

عنوان الكتاب : صوت أبي العلاء

اسم المؤلف: طه حسين

تقديم: مالك صقور

اختيار: أ.د. حسين جمعة

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/94/ آذار

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق محفوظة

لاتحاد الكتاب العرب

البريد الإلكتروني: E-mail: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت

<http://www.awu.sy>

طه حسين

صوت أبي العلاء

تقديم: مالك صقور
اختيار: أ.د. حسين جمعة

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (94)

طه حسين

مالك صقور

منذ سبعين عاماً ونيف صدر كتاب طه حسين (صوت
أبي العلاء) - وتحديداً عام 1944.

وقد يقول قائل أو يسأل سائل، ما الغاية، الآن، من
إعادة نشر مثل هذا الكتاب في هذه الأيام، والوطن العربي
يعيش حالة مخاض عسيرة غير عادية، وفي الوقت نفسه
انتصرت الردّة الظلامية، على أيد الإرهابيين المتوحشين؟

يجيب طه حسين نفسه في مقدمته لكتابه (صوت أبي
العلاء) قائلاً: "وسينكر قوم هذه الترجمة؛ لأنها لون جديد
من ألوان الأدب العربي الحديث. أليس غريباً أن نترجم إلى
العربية شعراً هو من صميم العربية؟ فما دامت الثقافة تتسع
وتنتشر، وما دام جمهور المثقفين يعظم ويضخم من يوم إلى

يوم، فلا بدّ من أن نقرّب إليهم أدبنا القديم ونزّينه في قلوبهم، ونصله بأذواقهم؛ فليس كل الناس قادراً على قراءة اللزوميات، والفصول والغايات، ورسالة الغفران، وفهمها. ومع ذلك، فيجب أن يعرف المثقفون جميعاً هذه الآثار وغيرها معرفة حسنة، وإلا انقطعت الصلة بين الحديث والقديم، وأصبح مكان الأدب العربي القديم من المثقفين المعاصرين مكان الأدب اللاتيني من الفرنسيين والإيطاليين. والله يعصم الأدب العربي القديم من أن تُقَطَّع الصلة بينه وبين الأجيال العربية إلى آخر الدهر". هذا أولاً.

وثانياً: بالإضافة إلى هذا السبب الهام الذي يذكره طه حسين، عن عدم القطيعة المعرفية أو الأدبية بين القديم والحديث، يرى طه حسين نفسه، أن اللزوميات لم يفهمها كثير من المثقفين وكأنه كتبها لنفسه، أو للذين يرقون إلى طبقته من أصحاب العلم الكثير والبصيرة النافذة. ولهذا أراد أن ييسّر اللزوميات للذين لا يستطيعون أن يقرؤوا شعرها العنيف، الذي لا يخلو من غرابة، والذي تَرَوَّر عنه أذواق المتعمقين للأدب العربي، فضلاً عن الذين لم يأخذوا من هذا الأدب إلا بأطراف يسيرة قصيرة.

ثالثاً: إذا كان المثقفون في أربعينات القرن الماضي، لم يستطيعوا فهم اللزوميات، فكيف الحال في أيامنا هذه!
رابعاً: مذ بدأنا مشروع كتاب الجيب، ونحن نبحث عن كتب مفقودة، لقامات أدبية لها وزنها المعرفي والأدبي، وفي ظني، أن هذا الكتاب من أهم كتب طه حسين في النقد التطبيقي.

خامساً: أرجو أن تتعرف الأجيال الشابة، والطلبة على فضيلة النقد، لاسيما، من مفكر، وأديب، وعلامة. من حجم طه حسين، يتحدث فيه عن عبقرى من عباقرة العرب الأفاضل ألا وهو أبو العلاء المعري.

سادساً: للتذكير بآراء أبي العلاء العقلانية، والذي فضل العقل على كل شيء، وبذر بذور الشك الذي سيوصل إلى الحقيقة والمعرفة، وفي الوقت نفسه، التذكير برائد من رواد النهضة العربية، والذي قضى حياته كلها في سبيل الدفاع عن الحرية، وعن حرية التعبير والرأي الآخر، مهما كان.

* * *

كتاب الجيب رقم 66 هدية مجلة "الموقف الأدبي" - عام 2012، نشرنا مختارات من قصائد أبي العلاء المعري تحت عنوان: "حكيم الدهر أبو العلاء"، وذكرت المحطات الرئيسية في حياة أبي العلاء، ولادته، نشأته، علومه، هجرته، فلسفته، زيارته لبغداد، وعودته، وعزلته، ولماذا كان رهين المحبسين. وهنا، لا أود التكرار، فإني سأحدث عن محطات في حياة عميد الأدب العربي طه حسين.

* * *

ولد طه حسين في عام 1889، في محافظة (المنيا) بالصعيد الأوسط، في قرية صغيرة (عزبة الكيلو). وكان طه الابن السابع بين ثلاثة عشر ولداً لأبيه، والابن الخامس بين أحد عشر لأمه. كان والده موظفاً صغيراً في معمل السكر، وهكذا نشأ (طه) أديب المستقبل في فقر مدقع، في محيط غارق بالفقر، والجهل، والتخلف، وهذا كان السبب في فقد بصره، وهو طفل صغير هزيل البنية الجسدية، ولما يتجاوز السادسة من عمره. في عام 1895

أصاب المرض الصبي، فأهمل، ولم يكثرث به أحد، وبعد عدة أيام، استدعى حلاق القرية كي يداويه، فأعطاه علاجاً، أودى ببصره، وأصيب بالعمى. وهذا أثر في حياته كلها، وقد عكس ذلك في ثلاثيته (الأيام).

إذن، جمعته آفة العمى مع عبقرى (المعرة)، ومن هنا، يذكر مؤرخو الأدب والنقاد، عن تعاطف طه حسين مع أبي العلاء، ولكن يجب أن يقال: إن كل ذي عاهة جبار. وكلاهما: أبو العلاء، وطه، عوضاً فقدان البصر بقوة البصيرة، والعقل، والموهبة، والعبقرية، وربما تلقى طه حسين درس الشك عند أبي العلاء، قبل أن يدرسه ويتعمق به ويتبناه عند (ديكارت).

وما إن أتم التاسعة من عمره، حتى حفظ القرآن الكريم، وألّم بمبادئ اللغة العربية. وعندما تفوق في دروسه، أرسل إلى القاهرة، وقد أراد له والده، أن ينتسب لجامعة الأزهر، كي يصبح شيخاً أزهرياً.

انتسب طه حسين إلى الأزهر الشريف عام 1902، وحضر دروس الحلقات الأولى، لمدة ثلاث سنوات، سمع فيها آخر درسين للشيخ الإمام محمد عبده.

وبين عام (1905 – 1907)، حضر دروس الحلقة المتوسطة في الفقه والنحو. لبدأ بعدها الدرس مع الطلبة المتقدمين، فحضر دروس الشيخ محمد بخيت الذي أصبح فيما بعد مفتي الديار المصرية في الفقه الحنفي ودروس الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوي في المنطق ودروس البلاغة على الشيخ عبد الحكيم عطا.

لكن طه حسين، بدأ يتذمر في البيئة الأزهرية، فاستاء منه الشيخ الأكبر للجامع فطرده، ولكن توسط له لطفى السيد عنده فأعاده ثانية.

بحث طه حسين عن ينابيع العلم خارج الأزهر، وقد وجدها عند محمد عبده، ودروس الشيخ المرصفي، وأعجب بقاسم أمين الذي نادى بتحرير المرأة، وعندما افتتحت الجامعة المصرية عام 1908 بدأ بحضور الدروس والمحاضرات فيها، وخاصة للمتشرقين، وبقي مواظباً على حضور دروس الأزهر.

تقدم طه حسين عام 1912 إلى امتحان التخرج في الأزهر، لكن علاقته بشيوخ الأزهر، حالت بينه وبين النجاح بناء على توجيه شيخ الأزهر، كما يقول طه حسين،

وبعد أن نوقشت رسالته في أيار عام 1914. كانت رسالته عن (أبي العلاء)، وقد أثارت ضجة كبيرة، في الجامعة، وخارج الجامعة، واتهم بأنه أَلّف كتاباً فيه كفر وإلحاد، ولولا رئيس الجمعية التشريعية وكان حينئذ سعد زغلول، الذي أحضره، وحاول إقناعه بضرورة العدول عن أسئلته التي تسبب ضرراً سيمتد تأثيرها إلى الأزهر، وهذا ما ذكره طه في (الأيام).

ولكن، ومع هذا، قرّرت الجامعة إفاده ضمن بعثة إلى فرنسا عام 1914. فدرس في جامعة (مونبلييه) علم النفس والأدب الفرنسي والتاريخ الحديث، ونتيجة الظروف المادية التي كانت تعاني منها الجامعة المصرية عاد إلى مصر، وفي السنة التالية تحسنت الأمور، فعاد إلى فرنسا 1915، والتحق بكلية الآداب بجامعة باريس، وحضّر رسالته عن (فلسفة ابن خلدون).

في عام 1917، حصل طه حسين على درجة (الليسانس) في الآداب من السوربون، وفي العام نفسه، تزوج من الفرنسية (سوزان بريسو) التي ستقلب حياته رأساً على عقب. وقد ساعدته في إتمام رسالة الدكتوراه في فلسفة ابن خلدون.

وفي شهر تشرين من عام 1919 عاد طه حسين إلى مصر، ليعين مباشرة في الجامعة المصرية، أستاذاً للتاريخ القديم (اليوناني والروماني)، ومن أيامه الأولى بدأت المنازعات بينه وبين الجامعة، من أجل زيادة مرتبه، وتعيين مبلغ لمرافقه. وبقي حتى عام 1925م، ليعين أستاذاً لتاريخ الأدب.

وفي عام 1926، أصدر كتابه (في الشعر الجاهلي) الذي أثار الضجة الكبرى، لأسباب سياسية، ويُعد هذا العام، وهذا الكتاب، علامة فارقة في حياة الدكتور طه حسين الذي سيصبح (عميد الأدب العربي)، فيما بعد. في عام 1928، عين طه حسين عميداً لكلية الآداب، غير أن الظروف السياسية اضطرتته إلى الاستقالة، بعد يوم من تعيينه، فعين يوماً واحداً، وقّع فيه بعض الأوراق، حتى إذا ما كان المساء، قدّم استقالته وأعيد عميد الكلية الفرنسي.

كذلك حصل معه عام 1930، إذ اختارته الجامعة عميداً لها، لكن وزير المعارف حينها نقله إلى ديوان الوزارة، ومن ثم ليصبح المفتش الأول للغة العربية.

تنقل طه حسين في أكثر من عمل وظيفي، ولكن داخل وزارة المعارف، والجامعة، مرة عميداً، ومرة مراقباً للثقافة، مرة مستشاراً، وقد أحيل إلى التقاعد ثلاث مرات، ثم أعيد، وبقي على هذه الحال، حتى عام 1950، إذ عين وزيراً للمعارف في الوزارة الوفدية وبقي في هذا المنصب حتى أقيلت وزارة مصطفى النحاس إثر حريق القاهرة عام 1952، فأحيل إلى التقاعد.

لكن يجب أن يذكر أنه خلال تلك الفترة، كان يكتب في الصحف المصرية، وينشط في مجال السياسة.

* * *

يقول د. مصطفى عبد الغني: "إن طه حسين ارتدى مسوح السياسة حين شارك في دروس الأدب، وارتدى مسوح أستاذ الجامعة حين شارك في السياسة واكتوى بنارها".
انتسب طه حسين إلى الحزب الوطني، وكتب في صحف (مصر الفتاة) و(الشعب) و(العلم)، و(الهداية)، و(ضياء الشرق) و(الدستور) كما نظم الشعر ومارس النقد الأدبي، ضمن إطار توجهات الحزب ورغبة ممثليه: عبد

العزیز جاویش الذی کان من أقطاب الحركة الوطنیة فی الحزب بعد مصطفی کامل ومحمد زید.

فی تلك الفترة، بدأ طه حسین یهاجم سعد زغلول هجوماً حاداً فی الصحف، لقد توزعت کتابات طه حسین فی تلك الفترة، ضمن دائرة الحزب الوطنی، وبقي ملتزماً بموقف الحزب من العداء المطلق لسلطة الاحتلال. وهو المعنى الذی تردد فی شعره آنذاك، فكتب قصیة موجهاً حديثه إلى النيل، یلوم المصریین لسكوتهم عن الاحتلال فی أسلوب رثاء، یقول:

ویك یا نیل قد عدوت بنی مصر

ر لدن قام كل جیل فجیل

ما عنائی وما عناؤك یا نیـ

ل لقوم رضوا حیاة الذلیل

قتعوا بالصغار واستعذبوا الضیـ

م فمالوا إلیه كل ممیل

والجدير بالذكر، أن طه حسين حرص كما الحزب الذي ينتمي إليه على الالتزام بخط الفكر الديني والتمسك بالعتيدة، وكان يعتقد أن سبب اضمحلال المسلمين في كل أنحاء العالم وفقدهم عظمتهم إنما مرجعها إلى انقسامهم وبعدهم عن تعاليمه الدنيوية. كذلك دارت كتابات طه حسين في تلك الفترة، المبكرة من حياته، ما يحث على التمسك بالعتيدة، والاهتمام بالقيم الاجتماعية، ويدعو الصائم على التمسك بصيامه مرة، ويدعو المرأة المسلمة إلى التمسك بالدين في عاداتها اليومية، كما ويدعو في شعره إلى الاهتمام بالمرأة، فالأمة لا ترقى إلا إذا عنيت بتعليم الأمهات. والأكثر من ذلك - كما يقول مصطفى عبد الغني - إن طه حسين كان يدعو إلى ضرورة التمسك بالشريعة الإسلامية وضرورة الحرص عليها من حيث التقاليد المعروفة بها إلى درجة أنه يدعو إلى تطبيق عقوبتي الرجم والجلد دون هوادة في حق الله"

ولكن بعد حين تطورت العلاقة بين الحزب الوطني وبين الحاكم فتحوّلت العلاقة إلى شيء أشبه بالمهادنة، وهذا انعكس في موقف طه حسين وأشعاره القليلة في تلك

الفترة؛ وإذا به يهنئ الخديوي عباس عقب عودته من أداء
فريضة الحج، لكنه يتحدث عن الجلاء وفي الوقت نفسه
يدعو إلى الربط بين الجلاء وقبل الدستور؛ يقول:

أنت والدستور في الحب لديها أخوان
وترى وجهك باليمن لها نعم البشير
كن لوادي النيل حصناً من عوادي الحدثان
وامنح الدستور مصر أنت إن شئت قدير
هل سمعت الصوت يدعوك في القبر الكريم
إنما أنت على الناس وصي أمين
لا تذهبهم عن صراط الحق والنهج القويم
أرض بالدستور مصر يرض رب العالمين
ولابد من القول أن طه حسين في تلك الفترة - كما
يقول - كان موزعاً بين مذهبين من مذاهب الكتابة:
- أحدهما: مذهب الاعتدال والقصد. ذلك الذي كان
الأستاذ لطفى السيد يدعو إليه ونيرنيه في قلبه.

– والثاني: مذهب الغلو والإسراف، وهذا ما كان الشيخ عبد العزيز جاويش يغيره به ويحرضه عليه تحريضاً. والواقع، أن تأثير لطفي السيد في أعماق (الفتى) طه حسين كبيراً، وخاصة، في إثر خلاف وقع بينه وبين أحد شيوخ الأزهر، بعد أن تجاسر الطالب الأزهري (طه) على الاعتراض على مسألة دينية.

وهكذا، كان الفتى طه حسين يستجيب للمذهبين جميعاً فإذا اقتصد في النقد نشر في الجريدة وإذا غلا نشر في صحف الحزب الوطني.

ولكن بعد فترة وجيزة، انحاز إلى حزب الأمة، وراح يكيل الضربات العنيفة للحزب الوطني الذي كان قد انتمى إليه سابقاً. وبعد فترة، ترك حزب الأمة وانتمى إلى حزب الأحرار، ومن ثم ترك الأحرار وانتمى إلى حزب الاتحاد. وعلى حد تعبير مصطفى عبد الغني، تحددت مهمة طه حسين داخل صحيفة حزب الاتحاد أول الأمر، أنه راح يهاجم سعد زغلول والوفدين إما بتوقيعه أو بعناوين مثيرة مثل (ضفاف بغاة)..

وفي عام 1933، انحاز موقف طه حسين انحيازاً تاماً (للوفد). فقبيل رحيل وزارة صدقي، أثيرت ضجة كبيرة في صحيفة (كوكب الشرق) مفادها، إعلان انضمام طه حسين إلى هيئة تحريرها، وكان ذلك بإيعاز من مصطفى النحاس رئيس الوفد. وانهالت مقالات الترحيب بطه حسين بانضمامه إلى حزب الوفد، حتى كتب مصطفى النحاس رئيس الوفد بخط يده، ونشرتها (كوكب الشرق): (إني لمغتبط باشتراك النابغة الكبير الدكتور طه حسين في تحريره على المبدأ الوفدي الذي دلت الحوادث على أنه مبدأ الحق ودين الأمة الذي قامت عليه نهضتها نحو غايتها السامية في الحرية والاستقلال".

* * *

رصدت حركة الفكر العربي في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين عدة تيارات سياسية، وذلك نتيجة تفاعل الثقافة السلفية - الإسلامية من جهة، وبين الثقافة الغربية - الأوروبية من جهة أخرى:

أولاً: تيار حرص على الميل للغرب ميلاً تاماً، وإن حرص على عدم المساس بالدين.

ثانياً: تيار حرص على الميل للغرب وإلى تراثه بكل ما فيه من سلبي وإيجابي.

ثالثاً: تيار حرص على تجنب كل عقيدة لمعالجة المشكلات بمعالجة أكثر عصرية مع الميل لتطوير العقيدة. والتيار الأخير كان يجهد لخلق صيغة فكرية جديدة. فهذا التيار (هم الليبراليون الحقيقيون): ومنهم طه حسين ومحمد حسين هيكل وقد مر معنا، بأن طه حسين كان متأثراً بلطفي السيد. وهذا كان متأثراً بتيار غربي ألا وهو التيار الليبرالي.

والليبرالية السياسية والمدنية هي فلسفة تقوم على الإيمان بالتقدم واستقلال الفرد لذاته، وتنادي بحماية الحريات السياسية والمدنية، والليبرالية مذهب عرف في أوروبا منذ القرن التاسع عشر، وقد تأثر طه حسين بالليبرالية الغربية، وتمثلت عنده: المجتمع القومي، حكم الأمة لنفسها على ضوء مصلحتها الخاصة، فصل الدين عن السياسة، والنظام الديمقراطي في الحكم.

في هذه الفترة بالذات، أي بين 1925 – 1930 عرف الوطن العربي قمة الصراع الفكري بين تيارين هذا ما عرف بالصراع بين القديم والجديد. وقد تمثل الصراع بين القديم والجديد لدى طه حسين في الاتجاه الأدبي، خاصة في ممارساتهم الأدبية.

ويمكن تلخيص اتجاه طه حسين الليبرالي وممارساته في مسألتين:

أولاً: التعليم.

ثانياً: الصراع بين العلمانية والإسلامية.

ولقد بدا هذا واضحاً في ممارسة طه حسين سواء السياسية أو الثقافية بعد عودته من البعثة عام 1919، وصعد هذا الاتجاه، وصبّ كل جهوده، في سبيل قضية التعليم. وقد استطاع أن يحقق ذلك حين جعل التعليم الابتدائي إلزاماً عاماً، والتعليم الثانوي مجاناً بكل نفقاته حيث يتمكن الفقراء من التعليم مجاناً.

* * *

لقد مثل طه حسين التيار الليبرالي في مصر في أكثر وجوه حيوية من حيث كونه فلسفة ونظاماً متكاملًا في الحياة، ولعل أهم هذه القضايا تمثلت في قضية (التعليم).
و حين كان يواجه التناقض الحاد بين الفكرة الليبرالية والفكرة الإسلامية كان يؤثر المنهج الغربي إما صراحة أو مواربة. وقد اتهم بعضهم طه حسين، حين أدخل العنصر الروحي في كتاباته، مثلاً: في الكتابات الإسلامية أعدوه انحرافاً عن الخط الليبرالي، لكنه يؤكد هو، أنه لم ينحرف عن الليبرالية إلا بقدر، ولم يتجه إلى الدين، وإنما كان (التطور) الذي لحق به من قناعات جديدة لها أساس مع القناعات القديمة، فهو، لم يجد ضيراً في الاعتراف عن تخليه عن نظرية الجبر التاريخي، وهذا هو الفرق بين كتابه (ذكرى أبي العلاء) عام 1914، وكتابه (قادة الفكر) عام 1925.

وهنا، لا بد من القول، أن طه حسين تلمس الرمز السياسي والاجتماعي، وأكد انحيازه للجميع، وقد تبلور موقفه في محورين:

1- حرية المرأة.

2- تربية المرأة.

وقد لوحظ تغيير مواقفه المتشددة من المرأة، فقد كان ضد زواج المسلم من (كتابية)، ثمّ سمح به، لأنه تزوج من فرنسية، والأمر الآخر، موقفه من الحجاب والنقاب، فهو لم يلتزم بالتفسير الظاهري للآية القرآنية التي نزلت من أجل حجاب زوجات الرسول (فاسألوهن من وراء حجاب).

* * *

من المعروف، أن طه حسين كان وزيراً للمعارف حتى عام 1952، كما مرّ معنا، وبعد حل الوزارة، رحل إلى إيطاليا، وبعد رحيله بقليل أعلنت ثورة تموز 1952. عن ذلك اليوم، تقول زوجته: إنه حين بلغ سمعه نبأ قيام الثورة في مصر، أصابته دهشة شديدة، أسلمته إلى حالة من فقدان الوعي. فسقط مغشياً عليه.

ومن اللحظة التي فقد وعيه فيها، كانت البداية لتحوّله من عصر إلى عصر. وكما يقول د. مصطفى عبد الغني، لم يكن فقدان الوعي هنا سيكولوجياً فقط، وإنما كان يعني فقداناً للوعي بشكل ذاتي وشخصي.

وهذه الفترة القصيرة من فقدان الوعي، كما يقولون،
ووصفوها، كانت كافية ليتحول من تمرد القديم وعلى
القديم إلى تأييده للجديد وللجديد.

وهكذا، انتقلت مصر من حال إلى حال، كذلك،
انتقل طه حسين من حال إلى حال أيضاً، وقد اتهم أنه انتقل
من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، بعد الثورة، لكن
الحقيقة، بدا للوهلة الأولى ظاهراً من اليسار إلى اليمين،
لكن في الباطن، أنه تحول من اليسار إلى اليسار.

ويستطيع القارئ المتتبع لسيرة طه حسين السياسية،
والفكرية والأدبية ملاحظة التغيرات التي طرأت عليه،
فحين سئل عن سبب تحوله من حزب الأحرار إلى حزب
الوفد في بداية الثلاثينات، قال: "جرت العادة على أن يتغير
الناس كلما تزيد بهم السن. فينتقلون من الشمال إلى
اليمين، وينتقلون من الثورة إلى الاعتدال. أما أنا فقد انتقلت
من اليمين إلى الشمال. لقد وجدت حزب الأحرار
والدستوريين والسعديين قد ائتلفا وكنتم أفهم أنني أكتب
معهما ثم بقي الأحرار على السعديين، هنالك تحولت إلى
الوفد".

أيدّ طه حسين الثورة ورجال الثورة، ونقلت الصحف نبأ لقاء طه حسين برموز الحركة الجديدة، ورئيسها محمد نجيب، ومن بعده جمال عبد الناصر. يقول طه حسين عن تلك المرحلة: " - وأشهد أنني عرفت الرئيس عبد الناصر أوائل الثورة، واتصلت بيّني وبينه مودة كانت في غاية الإخاء وفي غاية المتانة، وله علي فضل لا أنساه.. وكان صديقاً وأخاً حميماً، وكان براً وعطوفاً".

وهكذا، صاروا يصفون (عميد الأدب العربي)...

من الشيخ في الأزهر، إلى فتى السوربون. وبعد أن كان متمرداً معارضاً أصبح مؤيداً مهادناً.. لذا أطلقوا عليه: في المرة الأولى كان (طه حسين) وفي المرة الثانية: كان طه حسين (ضد) طه حسين، وذلك لأنه رضي أن يتحول من المثقف (العضوي) بتعبير نرامشي، التابع لطبقة اجتماعية سابقة على الثورة إلى مثقف من نوع المثقف (التقليدي) الذي ترك تراث طبقاته السابقة ومعتقداتها ليتعاون مع النظام الجديد أي مع ثورة تموز.

* * *

لقد حاولت، وعن قصد، باختصار تلخيص حياة (عميد الأدب العربي) السياسية، وتحولات طه حسين ومواقفه، لأنها كانت مجال إبداعه وهو شخصية أنموذجية، وإشكالية، ويقدر ما كان سعد زغلول صليباً، كان طه حسين عنيداً وصلباً أيضاً، والمجال هنا لا يتسع للكتابة عن طه وسعد، والكتابات الكثيرة التي انتقد فيها طه حسين سعد زغلول، حتى تعرض للمحاكمة أكثر من مرة، مرة بسبب كتابه (في الشعر الجاهلي)، ومرة بسبب موقفه وانتقاده لسعد زغلول.

لقد عاش الدكتور طه حسين حياة زاخرة: من الصعيد في مصر، إلى القاهرة، ثم الأزهر، والجامعة، إلى السوريين، إلى المعارك الثقافية الساخنة، فكان مجدداً، وعلى الرغم من أن تتفق معه، أو تختلف، فإنه من عباقرة القرن العشرين، الذين أغنوا المكتبة العربية لا بل الحياة العربية.

* * *

في العام الذي التحق فيه طه حسين بالرفيق الأعلى عام 1973 - أجرى معه حواراً غالي شكري، وقال في آخر حياته: أودعكم بكثير من الألم وبقليل من الأمل.

المراجع:

- 1- طه حسين المؤلفات الكاملة.
- 2- طه حسين - الأيام.
- 3- طه حسين - صوت أبي العلاء.
- 4- د. مصطفى عبد الغني: (المفكر والأمير) طه حسين والسلطة في مصر 1919 - 1973 - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة - 2005.
- 5- هكذا تكلم طه حسين خر مرة - حوار غالي شكري - منشورات دار البعث، وزارة الثقافة - أيار - 2006.

مقدمة المؤلف

العالم العربي كله يذكر أبا العلاء في هذه الأيام ذكرى محبٍ له، معجب به. والعالم الغربي يشارك في هذا الذكر الذي يملؤه الحب والإعجاب. وقد كان أبو العلاء سيء الظن بنفسه، سيء الظن برأيه؛ وهذه آية التواضع ومعرفة الإنسان قدر نفسه. وكان أبو العلاء سيء الظن بالناس محباً لهم مع ذلك رفيقاً بهم، ينصحهم ما وجد إلى نصحهم سبيلاً، يلين لهم حيناً ويعنف بهم أحياناً؛ وهذه آية الفطنة وذكاء القلب والعمق لحقائق الأشياء. وكان أبو العلاء سيء الظن بالتاريخ وبما يسميه الناس خلوداً في التاريخ، وكان أبغض شيء إليه أن يقدم الإنسان على الخير ليذكر في حياته أو بعد موته بأنه خير، أو يحجم الإنسان عن الشر ليذكر في حياته أو بعد موته بأنه تقي نقي.

إنما كان أبو العلاء يحب أن يقدم على الخير لأنه الخير، وأن يحجم عن الشر لأنه الشر. لم يكن يكره شيئاً كما كان يكره انتظار الجزاء. كان عفيف النفس والخلق والرأي والعقل جميعاً. ومن أجل هذا لم يكن حلو الأثر في نفوس الذين يعرفونه ولا يألفونه، ولم يكن عذب الصوت في أذان الذين يسمعون له دون أن يطيلوا الاستماع إليه، ولم يكن محبب النفس إلى الذين يتصلون به، فيرون منه هذه الخشونة التي تأتي من صراحة الخلق، وهذه الغلطة التي تأتي من إيثاره للحق.

أراد أبو العلاء أن يترجم عن نفسه، فترجم عنها كما استطاع: كانت نفساً حازمة صارمة، فترجم عنها في حزامه وصرامته، وازورّ الناس عن معانيه، ثم كانوا عن ألفاظه أشدّ ازوراراً. ضاق به أكثرهم، ولم يكد يأنس إليه منهم أحد، وارتفعت معانيه وألفاظه عن أكثرهم، ولم يكد يخلص إلى تلك ولا يطمئن إلى هذه إلا الأقلون عدداً. ومع ذلك فأبو العلاء فذ في الأدب العربي كله. وصل من حقائق الأشياء إلى ما لم يصل إليه أديب عربي قبله أو بعده. ومع ذلك فأبو العلاء فذ يعد من هذه القلة الضئيلة التي يمتاز بها

الأدب العالمي الرفيع على اختلاف العصور وتباين أجيال الناس وتفاوت حظوظ هذه الأجيال من الحضرة ورقى الشعور. فإذا فخر الأدب اليوناني القديم بأبيقور، وإذا فخر الأدب اللاتيني القديم بلوكريس، وإذا فخرت الحضارة الأوروبية الحديثة بأدبائها وفلاسفتها المتشائمين، فمن حق الأدب العربي أن يفخر بأي العلاء؛ فليس أبو العلاء أقل من أحد من هؤلاء الممتازين خطراً ولا أهون منهم شأنًا، ولعله أن يمتاز منهم بفضون من الأدب والعلم لم يظفروا بها ولم يشاركوا فيها. فقد كان أبو العلاء فيلسوفاً عميق الفلسفة، صادق النظر في أمور الحياة والأحياء. وكان أبو العلاء شاعراً، رفيع الشعر نقيه خلايه، يبلغ به من الروعة الهادئة في كثير من الأحيان ما لم يبلغه الفحول من شعراء العربية في قديمها وحديثها. وكان أبو العلاء أديباً، وعى من الأدب ما لا نعرف أن أحداً من أدباء العرب وعى مثله. وكان أبو العلاء صاحب خيال نفاذ، يصعد إلى أرقى ما يستطيع الخيال أن يبلغ، وينفذ إلى أعمق ما يستطيع الخيال أن ينفذ إليه. ثم كان أبو العلاء فوق هذا كله إنساناً ممتازاً بأدق ما لكلمة الامتياز من معنى: لم يؤذ أحداً، وإنما أحسن إلى

الناس جميعاً بما قدم إليهم من نصح، وبما أورثهم من هدى. ثم سار سيرة نقية لم يسرها أحد من المسلمين؛ فارتفع عن الصغائر إلى أرقى ما يستطيع أن يرتفع، وتنزّه عن الشر والإثم كأحسن ما يستطيع الإنسان أن يتنزّه عنهما.

فإذا ذكره العالم العربي الآن محباً له معجباً به، بعد أن مضى على ميلاده عشرة قرون، فإنما يردّ هذا العالم إليه أيسر حقه وأهونه، وإنما يرد إلى أبي العلاء حقه كاملاً يوم يحبه الناس ويعجبون به حباً وإعجاباً لا يقومان على الغرور والافتخار بالماضي القديم والاعتزاز بالتراث المجيد، فلم يكن أبو العلاء يحفل بشيء من هذا، وإنما يقوم على قراءة آثاره وفهمها ونقدها. وليس من المهم أن نقبل آراءه ومعانيه؛ فهذا أهون الأشياء. إنا لنعجب بأفلاطون وأرسططاليس وبكثير من الشعراء والفلاسفة والعلماء في اللغات المختلفة والآداب المتباينة، وما أكثر ما نرفض من آرائهم. فالحياة في تغير مستمر، والعقل في رقيّ متصل، والإنسان المتواضع مهما تبلغ به الكبرياء. فليس على النوابغ بأس ألا نقبل منهم كل ما تركوا لنا، وإنما علينا نحن البأس كل البأس ألا

نقرأهم ولا نفهمهم ولا ننقدهم ولا نصدر في حكمنا عليهم
عن القراءة والفهم والنقد.

وقد كتبت عن أبي العلاء ما أذن الله لي أن أكتب،
وأظن أنني قد عرفته بعض التعريف إلى هذا الجيل الحديث،
ولكني لم أؤد إليه من ذلك إلا بعض حقه، وما زالت له عليّ
حقوق كثيرة أرجو أن يعينني الله على تأدية بعضها؛ فقد
عرّفت أبا العلاء إلى خاصة الناس، وأحب أن أعرفه إلى
عامتهم، وأن أعرفه إلى عامتهم، وأن أعرفه على عامتهم
بالترجمة الصحيحة عنه، والتفسير الدقيق لشعره. فلو نشرت
اللزوميات في عامة المثقفين لما فهمها أكثرهم؛ لأن أبا العلاء
لم ينشئ اللزوميات لعامة المثقفين، بل لست أدري! لعله أن
يكون قد أنشأها لنفسه، وللذين يرقون إلى طبقتة من
أصحاب العلم الكثير والبصيرة النافذة. فما الذي يمنع أن
يسر اللزوميات للذين لا يستطيعون أن يقرؤوا شعرها
العنيف الذي لا يخلو من غرابة، والذي تزور عنه أذواق
المتعمقين للأدب العربي، فضلاً عن الذين لم يأخذوا من
هذا الأدب إلا بأطراف يسيرة قصيرة.

وأنا أعلم أن كثيراً من الناس سينكرون عليّ هذه الترجمة، سينكرها بعضهم لأنها تشيع التشاؤم وتسبغ على الحياة ألواناً قاتمة، وما ينبغي أن نشيع التشاؤم في الشباب، ولا أن نصور لهم الحياة إلا مشرقةً باسمه. ولكنني مع ذلك لا أشفق على الشباب من تشاؤم أبي العلاء؛ فالحياة أقوى وأنضر من تشاؤم المتشائمين. وما ينبغي أن تكون الحياة حلوة مسرفة في الحلاوة؛ فربما دعا ذلك إلى شيء من الغثيان والإسراف في الرضا والابتسام، قد يجعل الحياة فاترة خائرة قليلة الحظ من هذه الشدة التي تكون الرجولة، وتخلق المروءة، وتجعل الشباب قادرين على أن يلقوا المحن والخطوب بشيء من الجلد والشجاعة والصبر.

والشباب في حاجة إلى شيء من التشاؤم يزهدهم في الحاضر. ويرغبهم في المستقبل، ويدفعهم إلى الإصلاح، ويزين في قلوبهم حبّ الرقي. وليس شبابنا في حاجة إلى أن يلتمسوا التشاؤم عند "نتشه" و"شوبنهور" ولا إلى أن يلتمسوا النقد الخلفي والاجتماعي عند "لارشفوكو" وأمثاله من نقاد الأخلاق والاجتماع، وعندهم أبو العلاء قد امتلأت آثاره بالنقد السياسي والخلفي والاجتماعي، وبتصوير الرجولة

ومثلها العليا. فليتمس شبابنا هذه المعاني عند أسلافهم من شعراء المسلمين وفلاسفتهم، وعند أبي العلاء منهم خاصة. وليقرأ شبابنا بعد ذلك هذه الخواطر والمعاني والآراء عند الفلاسفة والأدباء المتشائمين في اللغات الأخرى، قراءة الغني المستطلع، لا قراءة المعدم الذي يلتمس الثروة عند غيره والثراء منه قريب.

وسينكر قوم هذه الترجمة؛ لأنها لون جديد من ألوان الأدب العربي الحديث. أليس غريباً أن نترجم إلى العربية شعراً هو من صميم العربية؟ بلى! ليس ذلك غريباً؛ وإنما الغريب ألا نترجم هذا الشعر. فما دامت الثقافة تتسع وتنتشر، وما دام جمهور المثقفين يعظم ويضخم من يوم إلى يوم، فلا بد من أن نقرب إليهم أدبنا القديم، ونزينه في قلوبهم، ونصله بأذواقهم؛ فليس كل الناس قادراً على قراءة اللزوميات، والفصول والغايات، ورسالة الغفران، وفهماها. ومع ذلك فيجب أن يعرف المثقفون جميعاً هذه الآثار وغيرها معرفة حسنة، وإلا انقطعت الصلة بين الحديث والقديم، وأصبح مكان الأدب العربي القديم من المثقفين المعاصرين مكان الأدب اللاتيني من الفرنسيين والإيطاليين. والله

يعصم الأدب العربي القديم من أن تقطع الصلة بينه وبين الأجيال العربية إلى آخر الدهر. وأنا مع ذلك أذيع هذه النماذج من ترجمة اللزوميات، ومعها النصوص الكاملة من شعر أبي العلاء. فمن استطاع أن يقرأ هذه النصوص دون أن يحتاج إلى ترجمتها فليفلح وخلاه ذم. ومن استطاع أن يقرأ الترجمة وعجز عن قراءة النص فليفلح، وحسبه ما يظفر به من الفائدة. ولكن قوماً بين أولئك وهؤلاء سيقرؤون النص وسيقرؤون الترجمة، وسيوازنون بين الصوت والصدى. وما أشك في أنهم سيجدون صوت أبي العلاء أعذب في نفوسهم وأحب إلى قلوبهم من صدهاء الذي تصوره الترجمة؛ لأنني أجد صوت أبي العلاء أعذب في النفس وأحب إلى القلب من كل صوت ومن كل صدى.

طه حسين

القاهرة يونيو سنة 1944

للّٰه أهل الفضل والعلم ما أجدرهم بالرحمة وأخلقهم بالثرثاء! إني لأراهم غرباء في بلادهم، مجفوين من أقاربهم، منبوذين من ذوي معرفتهم. وإني لأرى الفقر قد ضرب عليهم رواقه، وألقى عليهم كلكله، فحرّمهم لذة الأغنياء، بسبأ الخمر، وسبب النساء، وبألغ في إذلالهم والغض من أقدارهم، حتى إن أحدهم لينال أقل القوت وأدنى العيش، فيحسبه عطاءً موفوراً، أو نعمةً مسبغةً عليه. وأسفاه لنار شبيبتي حين تخبو، فلن أجد عنها سلوة ولا عزاء مهما ترتفع بي المنزلة، ولو نص لي خباء بين النجوم. ذلك أن الشيببة وحدها هي التي تتيح لي اقتضاء لذاتي واكتساب حاجاتي. فإذا انقضت فلا أمل في لذة، ولا مطمع في رضاء حاجة. أليس لكل عمل قدرٌ قدر به، ووقتٌ أتيح فيه، فليس بعد الخامسة عشرة طفولة ولا صباً، وليس بعد الأربعين مرح ولا مجون.

أجرك لا يقنعك ما يتاح لك في هذه الدنيا من حظ! رفه عليك، وأقصد في أطماعك، ووازن بين ما تسدي وما يُسدى إليك؛ فلو قد فعلت لتبينت أنك لا تسدي شيئاً، وأن الذي يُسدى إليك كثر إنما مثل ما يصيب الناس من حسن الحظ وسوئه مثل الأرض التي يتاح لبعضها أن ينبت ذكي النبات ورائعه، ولا يتاح لبعضها الآخر إلا أن ينبت غليظ النبات وفجه، ولا يعطي منه إلا الرديء الممقوت.

تواصل حبل النسل ما بين آدم وبينني، وكان ذلك حمقاً تجنبتة، وغياً برئت منه، فقطعت هذا الحبل ولم أصله، وأعرضت عن الزواج فلم أعقب في هذه الأرض نسلاً. إنما كان اتصال النسل عدوى شاعت في الناس كما يُعدي المتثائب جاره؛ أما أنا فقد برئت من هذه العدوى وعُصمت من آثارها، فلم أتئاب حين تتئاب جليسي.

إيه للناس! لقد عرفتهم حق المعرفة، وبلوتهم أحسن البلاء، فرأيتهم كلهم هباء، ورأيت أمرهم كله باطلاً. أفتراني زهدت فيهم إلا لأني بهم عليم.

ليتني استطعت أن أستدرك ما مضى، وأتلافى ما فات؛ إذاً لأنكرت من أمري بعض ما عرفت، ولغيرت من

مواصلتي القديمة للناس نفوراً منهم وانقطاعاً عنهم. ولكن
أين السبيل إلى ذلك وقد اشتغل الرأس شيباً كأنه النار
تأخذ أطراف القصب!

إنما هو القضاء يجب الإذعان له والرضا به؛ فالقضاء
إذن حُم قص جناح القطا فلا تنهض، وقلم أظفار السباع فلا
تصول، وأنت عن فهم هذا القضاء عاجز، ومن الوصول إلى
سره ممنوع. ألا تراه يكف بأس ذي البأس، فيمنعه من
البطش حين يريد البطش، ويحتفظ للسهل بسهولته وللحزن
بحزونه مهماً تتعاقب عليهما الأحداث. انظر إلى جبل رَضْوَى
ما زال قائماً على كثرة ما نطحته الجيوش، وانظر إلى
أرض قُبَاء ما زالت قائمة على كثرة ما اختلف عليها من
الرايات والأعلام. أذعن إذا واستسلم، ولا تحاول فهماً ولا
تأويلاً، فإن القضاء لا يخضع لفهم ولا تأويل.

إنما الحياة شر، فلنصرف عن هذا الشر. وإنما الوجود
بؤس، فلنقطع أسباب هذا البؤس. وإنما الآباء جناة على
أبنائهم مهماً يبلغوا من علو المنزلة وارتفاع المكانة، ومهما
يتح لهم من التفوق والسلطان. ويزيد جناية الآباء على أبنائهم
حدة، ويزيد بعد الآباء من أبنائهم شدة، أن يتاح لهؤلاء

الأبناء من الذكاء والنجابة ، ما يكشف لهم عن هذا الشر العظيم الذي دفعهم آباؤهم إليه حين منحوهم الوجود ، واضطروهم إلى الحياة ، فورطوهم في مآزق لا مخرج لهم منها ، ومصاعب لا سبيل إلى اجتيازها ، ومشكلات لا أمل في حلها.

خذ حذرك ، ولا تسمع لكل ما يقال ، ولا تستجب لكل ما تدعى إليه. أسيء ظنك بأدب أسيء الأدباء؛ فإنهم لا يدعون إلا إلى المين ، ولا يرغبون إلا في الباطل ، ولا يهدون إلا إلى الضلال.

أتريد أن تعرف الحق فاستمع لي ، إنما نحن صيد يطلبنا الموت حيثما اتجهنا ، ويظفر بنا حيثما اعتصمنا؛ فلا تفرق ولا تجبن ، وأقدم على ما ترى الإقدام عليه؛ فلن يمنحك الفرق خلوداً ، ولن يجنبك الجبن موتاً.

فكر أي فرق بين القوي إذا أدركه الخوف ، وبين الضعيف إذا مسه الهلع! فكر ما خطب الطبيب إن أشفق من الموت ، وفيم تتكر عليه هذا الإشفاق ، إذا لم يكن الأسد الهصور بمأمن من الخوف والإشفاق؟

أولو الفضل في أوطانهم غرباء
تَشِدُّ وتَتَأَى عنهم القُرباءُ
فما سَبَّتُوا الرِّاحَ الكَمِيتَ لِلذُّؤِ
ولا كان منهم للخِرَادِ سِبَاءُ
وَحَسَبُ الفَتَى من ذِلَّةِ العِيشِ أَنه
يروحُ بِأَدْنَى القُوتِ وهو حِباءُ
إذا ما خَبَّتْ نارُ الشَّيبِيةِ ساءني
ولو نُصِّ لي بين النجومِ حِباءُ
أرأيبك في الوُدِّ الذي قد بَدَّلْتَهُ
فأَضْعَفُ إن أجدى لَدَيْكَ رِباءُ
وما بعدَ مَرَّ الخَمْسِ عَشْرَةَ مِن صَبَأُ
ولا بَعْدَ مَرَّ الأربَعينِ صَبَاءُ
أجدُّكَ لا ترضى العِباءةَ ملبساً
ولو بان ما تُسديهِ قِيلَ عِباءُ

وفي هذه الأرض الرُّكودِ منابتُ
فمنها عَلَنُدى ساطعٌ وكِبَاءُ
تَوَاصَلَ حبلُ النسلِ ما بين آدم
وبيني ولم يُوصَلَ بلامىَ بَاءُ
تَنَاءَبَ عمروُ إذُ تَنَاءَبَ خالِدُ
بَعَدَوَى فما أَعَدَّتْني التُّؤَبَاءُ
وزَهَّدني في الخَلْقِ معرفتي بهم
وعَلِمَني بأن العالمين هَبَاءُ
وكيفَ تَلَأَفَى الذي فاتَ بَعْدَ ما
تَلَفَّعَ نيرانَ الحريقِ أَبَاءُ
إذا نزلَ المقدارُ لم يكُ للقطَا
نهوضٌ ولا للمُخْذِرَاتِ إِبَاءُ
وقد نُطِحَتْ بالجيشِ رَضْوَى فلم تُبَلْ
وُلُزَّ بِرَايَاتِ الخَمَيْسِ قُبَاءُ

على الولد يجزي والد ولو أنهم
وُلَاةٌ على أمصارهم خطباء
وزادك بُعداً من بنيك وزادهم
عليك حُقُوداً أنهم نجباء
يرون أبا ألقاهم في مؤرب
من العقْد ضلّت حله الأرباء
وما أدب الأقبام في كل بلدة
إلى المئين إلا معشر أديباء
تتبعنا في كل نقب ومخرم
منايا لها من نفسها نقباء
إذا خافت الأسد الخماص من الظبأ
فكيف تعدى حكمهن ظبأ

- 2 -

دع ما استقرّ في طباع الناس من إهمال الحق وإيثار الباطل اغتراراً بالظاهر الكاذب: من لفظ خادع، أو وهم شائع، أو خرافة باطلة، فإنما حياة الناس ألوان من تلك الأباطيل المحترمة كأنها حق. منها ما أجمع الناس عليه في كل جيل وفي كل موطن من تكريم الجثة بعد الموت مع أنها صائرة إلى التغير والاستحالة وصائرة هباءً بعد حين، وحرصهم على الحياة واغترارهم بها وانخداعهم بلذاتها واندفاعهم خلف الآمال والأمانى، كأنهم خالدون، مع أن الموت لا بدّ منه ولا مندوحة عنه.

وما الروح في الجسم إلا كالراح في الدنّ، لكل مقتضٍ يبتغيها، وطالبٌ يرغب فيها. فطالب الراح الإنسان، وطالب الروح الموت.

إن بعض الأدياء ليعيروننا لفظ المعرة، يزعمون أنها مشتقة من العر (الجرب). فانظر إلى سخف الناس وما يتورطون فيه من الانخداع بالأسماء، والاندفاع فيما تدعو إليه من رغبة أو هربة غير حافلين بالحق ولا ناظرين فيه. لو أن للأسماء أثراً في الوجود والحس، لكانت الأسود إنما تستمد إباءها من أجماتها التي تسكنها وهي قصب الآباء. ولكان أهل يثرب قد أصابهم التثريب والعيب، مع أنهم أحق الناس بالمدح والمثوية، لما جالدوا عن الدين وذادوا عن حوضه، بضرب يطير الفرخ عن وكر أمه، ويبطل مزية الدرع فيردها كالقميص لا تغني غناء، ولا تدفع بلاء. ولو كان ذلك حقاً لكان اسم ذي نجيب - وهو موضع بجزيرة العرب - علةً لنجابه سكانه ونبوغ أبنائه. أجل! إن ذلك باطل، فساد العقول، ومرض القلوب، وانحراف الأمزجة.

وإنك لترى لفظ الدين والخير أشيع الألفاظ بين الناس، يتخذونهما طريقاً إلى الحياة والغنى، وجنة من الموت والفاقة، مع أن معنى الدين عزيز لا ينال إلا بالكد، ولا يدرك إلا بالمحاولة، ولا يسمو إليه إلا من أعد له العدة من جهاد بالنفس والقوة والمال. وما كنت لأخذ بلفظ الخير،

فأزعم بعد ذلك أنني خيرٌ، وإن طالما ردد الخطباء هذا اللفظ ولاكته أفواههم. إنما الخير معنى يؤثر في القلوب والعقول، وتظهر آثاره في الأعمال، ولا لفظ تلوكه الأفواه وتذهب به الرياح.

وهل رأيت أضعف عقلاً، أو أسخف رأياً، أو أضلّ حِلماً، أو أسفه نفساً ممن يتفزع ويتشائم، أو يستبشر ويتفاءل بالألفاظ الخادعة أو الأمور التي لا أثر لها في عمل الطبيعة! تلك الأعرابية تفزع وترتاع حين تعرض لها نواعب الغربان أو أسراب الطيباء، مع أن الداهية قد تلمّ بالحيّ البصير الحازم، تفاعل أم تشاؤم، لا يؤثر ذلك في قدر، ولا يدفع ذلك شيئاً من البلاء.

وأولئك قيس بن عيلان أعداهم الغنى والثروة، فعادوا من أثرياء الناس وأهل الغنى منهم، ولولا أن سبق بذلك قضاء محتوم وقدر مكتوب، لما وريت لهم زند، ولا كان لهم رقد، ولعادوا إلى ما كانوا فيه من الفقر المدقع، يغنيهم رعي الكلاً، ويقنعهم الحصول على أدنى القوت، مختلفين فيما بينهم، لا يجمعهم نظام، ولا يلم شعثهم قانون، وإنما هو الغلب والقهر، وهو السلطان والاستبداد.

تُكْرَمُ أَوْصَالُ الْفَتَى بَعْدَ مَوْتِهِ
وَهُنَّ إِذَا طَالَ الزَّمَانُ هَبَاءً
وَأَرْوَاحُنَا كَالرَّاحِ إِنْ طَالَ حَبْسُهَا
فَلَا بَدَّ يَوْمًا أَنْ يَكُونَ سِبَاءً
يَعِيرُنَا لَفِظَ الْمَعْرَِّةِ أَنَّهَا
مِنَ الْعَرَقِ قَوْمٌ فِي الْعُلَا غُرَبَاءُ
فَإِنَّ إِبَاءَ اللَّيْثِ مَا حَلَّ أَنْفَهُ
بِأَنَّ مَحَالَاتِ اللَّيْثِ أَبَاءُ
وَهَلْ لِحَقِّ التَّثْرِبِ سَكَانٌ يَثْرِبُ
مِنَ النَّاسِ لَا بَلَّ فِي الرِّجَالِ غِبَاءُ
هُمُ ضَارِبُوا أَوْلَادَ فِهْرٍ وَجَالِدُوا
عَلَى السِّدِّينِ إِذْ وَشَى الْمَلُوكَ عَبَاءُ
ضِرَابًا يُطِيرُ الْفَرْخَ عَنِ وَكْرِ أُمِّهِ
وَيَتْرُكُ دِرْعَ الْمَرْءِ وَهِيَ قَبَاءُ

وذو نَجَبٍ إن كان ما قيل صادقاً
فما فيه إلا معشَرٌ نُجَبَاءُ
هل الدِّينُ إلا كاعبٌ دون وصلها
حِجابٌ ومَهْرٌ مُهُورٌ وحباء
وما قبلت نفسي من الخير لفظه
وإن طال ما فاهت به الخطباء
تَفَزَّعُ أعرابيةٌ أن جَرت لها
نواعبٌ يستعرضنَّها وظباء
وما الأربى للحى إلا مُسَقَّةٌ
على أنهم في أمرهم أرباء
تعادتْ بنوقيس بن عَيْلان بالغنى
فشابوا كأن العسجد التُّوباء
ولولا القضاء الحتمُ أخبى واقدُ
ولم يُبْنِ حول الراقدين خباء

وعادوا إلى ما كان إن جاد عارضُ
رأوا أن رعيّاً في البلاد رِبَاءِ
يُبِيئُونَ قَتْلَهُمْ بِأَكْثَرِ مِنْهُمْ
وإن قتلوا حُرّاً فليس يُبَاءِ

- 3 -

شيئاً من الفطنة ونفاذ البصيرة؛ فإنما الأمر بينك وبينني
يقوم على الرياء والنفاق. إنني لأظهر لك غير ما أضمر،
وأبدي لك غير ما أخفي، فليغفر الله لي هذه الزلة،
وليتجاوز لي عن هذه السيئة.

وما أكثر ما ينكر الإنسان أمر عشيره! يرى منه ما
يرضيه ويخدعه، ولو قد تكشف له ما وراء ذلك لرأى شراً
ونكراً.

برئت إلى الله من الذين لا يعبدونه وحده ناصحين
مخلصين لا يشوب دينهم رياء ولا نفاق.

أرأيتكَ فليغفرُ ليَ اللهُ زَلَّتِي
بِذَلِكَ وَدِينُ الْعَالَمِينَ رِئَاءَ
وَقَدْ يُخْلِفُ الْإِنْسَانَ ظَنَّ عَشِيرِهِ
وَإِنْ رَاقَ مِنْهُ مَنْظَرٌ وَرُؤَاةُ
إِذَا قَوْمُنَا لَمْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ
بِنُصْحِ فَإِنَّا مِنْهُمْ بُرَّاءُ

- 4 -

سألت رجالا من أهل العلم وأصحاب الفلسفة والبصر
بحقائق الأشياء عن معد ورهطه فماذا أعدوا لالتقاء
الخطوب، وماذا دبروا لتجنب الأحداث؟ وسألتهم عن سبأ
ماذا كان يسبي إذا حارب، وماذا كان يسبأ إذا فرغ للهوه،
وإلا صار أمره بعد هذا كله؟ فقالوا: إنما هي الأيام قد أنزل
الناس على حكمها، لم يُعَفَّ من صروفها عليك يفتدى

بالأنفس والأموال، ولا تقيُّ يدين الناس له بالكرامة أو بالنبوة.

إني لأرى فلماً يدور بما فيه ومن فيه، وإن لهذا الفلك لسراً مصوناً، وخبراً مكتوماً.

فأعرض عن الدنيا، ولا تغررك عن نفسك، لا في شبيبة ولا في شيخوخة. إنما هي نصيحة أسديها إليك مخلصاً؛ لأنني أوثرك بالحب، وأنا أربأ بالذين أحبهم عن طلب الدنيا والتورط في آثامها.

لا تطلب الدنيا، واصبر نفسك على أحداثها وكوارثها، وأقم فيها إقامة المجاهد المرابط، فإن ما يلم بأهلها من النوائب ليست إلا كتائب يبيتها القضاء، مفرقة حيناً ومجمعة حيناً آخر، ولا مرد لها على كل حال.

سَأَلْتُ رَجَالاً عَنِ مَعَدِّ وَرَهْطِهِ

وَعَنِ سَبَأِ مَا كَانَ يَسْبِي وَيَسْبَأُ

فَقَالُوا هِيَ الْأَيَّامُ لَمْ يُخْلِ صَرْفُهَا

مَلِيكاً يُفْدَى أَوْ تَقِيّاً يُنْبَأُ

أرى فلکاً ما زال بالخلق دائراً
له خبرٌ عنا يُصانُ ويُخبأُ
فلا تطلب الدنيا وإن كنت ناشئاً
فإني عنها بالأخلاء أربأُ
وما نُوبُ الأيام إلا كتائبُ
تُبْتُ سرايا أو جيوشُ تُعبأُ

بني زمني لا تجدوا علي، ولا تتقموا مني أن أنكر
حالكم، وأذم فعالكم؛ فإني أنكر من نفسي مثل ما
أنكر منكم، وأعيب من فعلي مثل ما أعيب من فعلكم،
أشارككم في الحياة، فأشارككم في الإثم، وفي اللوم.
ما أقدر الله على أن يردنا إلى هذا التراب، فنسكن
بعد حركة، ونهدأ بعد عناء!

لقد جاوزت نفسي هذا الجسم النكد، فما أصابها من
جواره إلا الأذى والصدأ الذي يفسد معدنها، ويجلب لها
كدرًا بعد صفاء.

بني الدهر مهلاً إن ذممتُ فعالكم
فإني بنفسِي لا محالة أبدأُ
متى يتقضى الوقت والله قادرٌ
فنسكنَ في هذا التراب ونهدأُ
تجاوز هذا الجسمُ والروحُ برهةً
فما برحتُ تأذى بذاك وتصدأُ

- 6 -

ما أكثر ما يستقبل الناس الصباح، وما أكثر ما
يستقبلون المساء! ولكنهم جميعاً ينسون ما يكون بينهما
من الأحداث.
ما أكثر من يمضي من الساسة والقادة وقد سرّوا
الناس بسياساتهم وقيادتهم، أو ساؤوهم بما دبّروا وقدرّوا!
إن الملوك والرؤساء ليتتابعون فيما يردون من الهلك،
ولكن بلادهم تبقى على عهدا لا تغير ولا تتبدل؛ فمصر

هي مصر، والأحساء هي الأحساء، وما أكثر مَنْ هلك من ملوك مصر وأمراء الأحساء!.

أي أمنا الدنيا، إنك لخسيصة حقيرة، فأف لنا نحن أبناءك من أوباش أحساء، ورثنا عنك الخسة وضعة القدر. إنك لتعطينا أصناف العظاات وتقدمين لنا ألوان النصيح، بما تتكشفين لنا عنه من السوء والشر، والناس مع ذلك يرونك خرساء لا تتطقين!

مَنْ لصخر بن عمرو أن يكون جسمه صخرًا لا حياة فيه! ومن لأخته الخنساء، أن تكون طبية ترعى مع الأطباء، لا حظ لها من عقل! إذاً لتجنبنا ما أصابهما من القتل، والثكل والحزن.

إن بحرك لهائج شديد الهياج، مضطرب عظيم الاضطراب، تعصف به الشهوات الجامحة، والأهواء العنيفة؛ ونحن في سفن يكتنفها الهول من كل وجه. فمتى يتاح لها الإرساء ومتى تتاح لأهلها العافية!

إنك لتعطفين علينا وترفقين بنا. وما أرى عطفك إلا قسوة، وما أرى رفقك إلا عنفاً. وإنك لتتظيرين إلينا، فنرى في نظرك إلينا رحمة ولينا، وأنه مع ذلك للنظر الشرر، لا يصور إلا الغلظة والجفاء!

إنما الناس على الأرض في إحن مستمرة ومحن متصلة ،
يذوق بعضهم بأس بعض ، يتساقون الموت كما يتعاطون
الشر ، على حين لا يصيب الوحش على الأرض من الشر إلا
أيسره وأهونه .

فلا تتخضع بما ترى من جبالهم السماء ، وعزتهم
القعساء ، ومجدهم التليد والطريف ؛ فإنما هذا كله باطل
وغرور .

إنما أتيح لهم حظ قليل من لذة ، ونصيب ضئيل من
نعمة ، ثم ارتحلوا فإذا اللذة ألم ، وإذا النعماء بأساء .

يأتي على الخلق إصباح وإمساء

وكانا لصروف الدهر نساء

وكم مضى هجري أو مشاكله

من المَقاولِ سَرُوا الناس أم ساؤوا

تتوى الملوك ومصراً في تغيرهم

مصراً على العهد والأحساء أحساء

حَسِبْتِ يَا أُمَّنَا الدُّنْيَا فَأَفُّ لَنَا
بنو الخسيصة أوباش أخساء
وقد نطقتِ بأصناف العظاات لنا
وأنت فيما يظن القوم خرساء
ومَنْ لصخرِ بن عمرو أن جُتُّهُ
صخرٌ وخنساءٌ في السُّرْبِ خنساء
يموج بحرُك والأهواء غالبيةٌ
لراكبِهِ فهل للسفن إرساء
إذا تعطفَت يوماً كنتِ قاسيةٌ
وإن نظرتِ بعينٍ فهي شوساء
إنسٌ على الأرض تُدْمِي هامَهَا إِحْنٌ
منها إذا دَمِيَتْ للوحش أنساء
فلا تُغَرِّنْ شُمَّمٌ من جبالهمُ
وعِزَّةٌ في زمان الملك قعساء

نالوا قليلاً من اللذات وارتحلوا
برغمهم فإذا النعماء بأساء

- 7 -

إنما العليل المعنى طبيبٌ إذا عرف علتَه، واستقصى
حقيقة الداء الذي يعانیه. فاعرف علتك في هذه الحياة،
واستقص حقيقة ما يصيبك فيها من أذى، وما يلم بك فيها
من مكروه. إن أصل هذا كله حاجتك التي لا تتقضي،
وتتبعك لتحقيق ما تشير الحياة في نفسك من رغبات. والرجل
الليب هو الذي يشفي نفسه من الحاجة، ويكفها عن تتبع
المآرب.

يا ويحنا! إنا لنفرُّ من الموت، وليس لنا ملجأ من الموت،
ونحن مع ذلك نمضي في الفرار، وهو مع ذلك يلح في اقتفاء
آثارنا، كأنما نحن الأحباء قد شطت بهم نوى بعيدة،
والموت عاشق ملح يأبى إلا أن تتصل أسبابه بأسبابنا.

إن الأعماء إن كانوا ذوي رشدين
بما يُعانون من داء أطباء
وما شفاك من الأشياء تطلبها
إلا الألباء لو تُلقَى الألباء
نُفِرُ من شُرْبِ كأسٍ وهي تتبَعنا
كأننا لمناينا أحياء

- 8 -

إذا تمايز الناس في أخلاقهم وخصالهم، وافترقوا في
أقوالهم وأعمالهم، فهم سواء في فساد الطبع وسوء الغريزة.
وإذا كان كل الذين ولدتهم حواء يشبهونني في الطبع
والخلق والسيرة، فبئس من ولدت حواء للناس.
إنما أوتر العزلة وأتجنب الناس، لأبرأ من أدوائهم،
وأعتصم من شرورهم، وأطهر من آثامهم. إنما أريد أن
أكون كبيت الشعر يقوله الشاعر مفرداً لا سابق له ولا
لاحق، فهو بذلك آمن عيوب القافية. إنما يأتينا السوء من

الحياة الاجتماعية التي يجاور فيها بعضنا بعضاً، فيشقى فيها بعضنا بجوار بعض.

لقد ناداني المنادي ألويت فانزل. فلأفهم عن المنادي نداءه، فهو لا يريد أني قد بلغت اللوى، وإنما يريد أن نبتي قد ألوى، وأن زهري قد ذوى، وأنني قد أدركت الشيب، فآن لي أن أرعوى وأثوب إلى الرشد.

إنما الشيب كهذه النجوم التي لا تكاد تظهر في الدجى حتى يتبعها المطر الواكف، كذلك الشيب لا تكاد تظهر نجومه في سواد الشعر حتى تنهل العبرات حزناً وخوفاً وإشفاقاً.

إن مازت الناس أخلاقاً يعاش بها

فإنهم عند سوء الطبع أسوء

أو كان كل بني حواء يُشبهني

فبئس ما ولدت في الخلق حواء

بُعدي من الناس برء من سقامهم

وقرُّهم للحجا والدين أدواء

كالبيت أفرد لا إطاء يدركه
ولا سناد ولا في اللفظ إقواء
نوديت ألويت فانزل لا يراد أتى
سيرى لوى الرمل بل للنبت إلقاء
وذاك أن سواد الفؤد غييره
في غرة من بياض الشيب أضواء
إذا نجوم قدير في الدجى طلعت
فالجفون من الإشفاق أنواء

- 9 -

أسرع إلى ما يخلق بك من نفع الناس معرضاً عما لا خير
فيه، وبادر بذلك أحسن الأوقات، وأشدها ملاءمة له، وهو
وقت الشباب؛ فإن الشباب أوفق وقفت لاستيفاء الحاجات
واقضاء اللذات، وهو لا يدوم بل الدهر ماحيه ومخبئ

جذوته. وما الشباب إلا كالنار، يجدر بمن يريد الانتفاع بها أن ينتهز فرصة ذكائها وتلظيها.

ولقد أصاب قوة شبابي وهن الشيب، فلم أستطع أن أردّ ذلك الضعف قوة، ولا أن أحول هذا الخمود استعاراً. ولئن كان الشباب كالنار إن من اليسير عليك إذكاء النار الخامدة بعد خمودها، وليس من الممكن ولا من المتاح أن تسترد شباباً مضى، أو تستأنف قوة فاتت.

ولست آمن عليك حين تخبو نار شبابك فتريد إذكاءها، أن يعود عليك ما تحاول من نفعها ضرراً، وما تطلب من خيرها شراً؛ فكل قوة يبذلها الأسيب استئناً لحياة الشباب لا تزيده إلا ضعفاً ولا تفيده إلا وهناً.

أَكْفَى سَوَامِكَ فِي الدُّنْيَا مُيَاسِرَةً

وَأَعْرَضَنْ عَنْ قَوَائِمِ الشَّعْرِ تُكْفِئُهَا

إِنَّ الشَّبَابَ نَارٌ إِنْ أَرَدْتَ بِهَا

أَمْرًا فَبَادِرْهُ إِنْ الدَّهْرُ مُطْفِئُهَا

أصاب جمري قُرُفانتبهت له
والنار تُدْفئُ ضيفي حين أدفئها
ألقى عليها جليسي في الدجى حُمماً
فقام عنها بأثواب يُرَفِّئها

- 10 -

أجل! قد عميت الأبصار، وختم على القلوب، وأظلمت
البصائر حين حجب عنها نور الحق، فظن الناس أنهم على
دين صادق، وإنما هم أهل نفاق ورياء، ليس إلى إصلاحهم
من سبيل؛ فقد فقدوا أهم شرط للإصلاح وهو الحياء.
وكيف يمكن أن يميل إلى الخير من لا يستحي من الشر!
أي هذا العالم السيئ والمنزل الموبوء! لقد رأينا فيك
المصلين، ولكننا لم نر فيك الأتقياء.
ألا لا يكذب الجاهلون؛ فقد خلع الناس ولاية الله من
أعناقهم، فليس فيهم له ولي ولا صادق أمين.

أيتها البلاد التي اشتملت السعادة والشقاء، واحتوت
الفقر والثراء! لقد حقت عليك الكلمة، ومضى فيك القضاء
المحتوم بالخزي والتعس؛ فأهلك أشقياء ليس لهم من شقائهم
منفذ ولا لهم عنه صارف، لا ينفعهم وعظ، ولا يحكمهم
إرشاد. لقد طالما عينا أنفسنا بالنصح والهداية، فوعظ
الواعظون وقام الأنبياء، ولما يُجد ذلك نفعاً، ولما يأت بخير.
البلاء باق لا زوال له، والداء عياء لا شفاء له، وحكم الله
فينا نافذة لا صارف عنه، ولكننا بفطرتنا أغبياء لا نفهم،
وحمقى لا نعقل:

قد حُجب النور والضيأُ

وإنما ديتنا رياءُ

وهل يجود الحيا أناساً

منطويأ عنهم الحياء

يا عالمَ السُّوء ما علمنا

أنّ مصليك أتقياء

لا يكذبنّ امرؤ جهولٌ
ما فيك لله أولياء
ويا بلاداً مشى عليها
أولو افتقار وأغنياء
إذا قضى الله بالمخازي
فكل أهليك أشقياء
كم وَعَظَ الواعظون منّا
وقام في الأرض أنبياء
فانصرفوا والبلاء باقٍ
ولم يزل داؤك العيَاء
حُكْمٌ جرى للمليك فينا
ونحن في الأصل أغبياء

- 11 -

تعالى الله الذي شمل الناس بنعمته، وعمهم برزقه، لم يفرّق بين فاضل وعاطل، ولا بين ناقص وكامل.

لقد وهت المروءة وأخلق أديمها، ومضى الحياء وعفت آثاره، حتى بغضت الحياة إلى البصر ذي اللب، وكره العيش إلى الحصيف ذي العقل، وأصبح الموت له راحةً والعدم له نعيماً. أجل! لقد أصبح الموت خيراً من حياة ملؤها الشر، وأحب إلى النفس من عيش مضعم بالذل والاستبداد؛ فقام على الناس، ومنهم الألباء الأذكياء، ظلمة معتدون، يحملونهم على ما يكرهون، ويسوسونهم بما لا يحبون، وهم بعد ذلك أولى أن يحملوا نفوسهم على الخير، وأجدر أن يأخذوها بالمعروف.

أجل! لقد فتشت في هذه الدنيا عن أهل الدين الصادق، والاعتقاد الصحيح، الذين لا يشوب صفاء دينهم كدر الرياء، ولا صدأ النفاق ولا دنس الخديعة، فإذا الناس في

الدين رجلاً: أما أولهما فأبلىه لا يعقل أو محقق لا يفقه، هو البهيمة لا يهديها إلى الحق عقل، ولا يرشدها إلى الخير ضياء. وأما الثاني فذكي فطن، ولكنه مختال مرح. فأنت من أهل الدين بين ماكر خادع، وجاهل غبي.

ولعمري لو أن الدين والتقي كانا عياً وبلهاء أو غفلة وحمقاً، لقد كانت الأعيار التي ضربت عليها الذلة، والحرر التي أخذت بالنزق والمسكنة، أحق بالدين وأدنى إليه، ولكان ذلك الأجر الذي أكله العبء الثقيل، وهبت عليه الرياح الباردة، فزادته تأذياً بدائه وتألماً بعلته، أهدى على الدين سبيلاً، وأكثر فيه رشداً! أجل! لقد عظم الشر في هذه الحياة، واشتد حرص الناس عليها؛ فليس فيهم إلا محب لها ومشغوف بها، حتى جعلهم الحرص كلهم فقراء، لا يعرفون الغنى، ولا يذوقون النعمة، وحتى كان ما فيها من شقاء يغريهم بها، وما في الموت من راحة يصرفهم عنه.

ولقد عظم في نفوسهم أثر الحرص على الحياة، حتى ما تجد لأحد من أصحابه صديقاً ولا صديقاً. وكذلك باعدت الحياة بين الناس قديماً؛ فهم أعداء منذ كانوا وقد خلقوا ليكونوا أصدقاء.

إيه أيها المحمقون! لقد أخطأتكم العبرة، وأضلتكم
الموعظة، ففعلتم عما كان يخلق بكم أن تحفلوا به وتنتبهوا
إليه! علام تأسفون إن دهمكم الموت وفارقتكم الحياة؟
أفتعتقدون أن الشمس وهي أذكى منكم ناراً وأجمل بهاء
تحس مالها من نياهة الشأن وحس الطلعة، فتأسف إن
فارقها جمالها، وتأسى إن باعدها ضياؤها! أما إن في العالم
لعبراً نافعة، ومواعظ صالحة، ولكن الناس أكثرهم لا
يعقلون.

تعالى رازقُ الأحياء طرأ

لقد وهت المروءة والحياءُ

وإن الموت راحة هبـرزي

أضـرر بلبـه داء عيـاءُ

ومالي لا أكونُ وصي نفسي

ولا تعصي أموري الأوصياء

وقد فـشنتُ عن أصحاب دين

لهم نـسكٌ وليس لهم رياء

فألفيتُ البهائم لا عقولُ
تقيم لها الدليلَ ولا ضياء
وإخوانُ الفطانةِ في اختيالِ
كأنهم لقومُ أنبياء
فأمَّا هؤلاءِ فأهلُ مكرٍ
وأمَّا الأُولُونَ فأغبياء
فإن كان التُّقى بلهاً وعباً
فأعيارُ المذنبِنة أتقياء
وأرشدُ منك أجربُ تحت عبءٍ
تهبُّ عليه ريحُ جرياء
وجدتُ النَّاسَ كُلَّهُم فقيرٌ
ويُعَدُّمُ في الأنعامِ الأغنياء
نحبُّ العيشَ بغضاً للمنايا
ونحن بما هَوينا الأشقياء

يموتُ المرءُ ليس له صفيُّ
وقبلَ اليومِ عَزَّ الأصفياءُ
أتدري الشمسُ أنَّ لها بهاءً
فتأسَفُ أن يفارقها الإياءُ

- 12 -

جدوا أيها الناس فيما أنتم بسبيله من تقرب إلي وتلطف
بي، ومن رفق تظهورونه وغش تضمرونه، ومن لفظ حلو
تهدونه إلي ولومٍ مرٍ ترمونني به؛ فلقد كثر ما أظهرتم الحب
لي، وأصابني من بغضكم طوال السهام وقصارها، وعظام
الأمور وصغارها.

جدوا في ذلك كله؛ فلم يكن تقربكم إلي ليؤلف بيني
وبينكم إلا إن صح ائتلاف الذال والظاء:

أراهم يضحكون إلي غشاً
وتغاشني المشاقصُ والحظاءُ
فلسْتُ لهم وإن قرئوا أليفاً
كما لم تأتلف ذالٌ وظاءُ

- 13 -

ويلي على تلك الذوائب السود قد أغار عليها ذلك
الشيب نهاري الثوب، يمحو ظلّمته بضياؤه قليلاً قليلاً حتى
يأتي عليها.

أفينبغي أن آسى على الشباب؟! أم ينبغي أن أفرح
بالشيب؟! أفلا أستطيع أن أتلقى الشيب فرحاً مسروراً،
معللاً نفسي بما عسى أن يكون حقاً من الأماني! فلعل هذا
السواد الزائل قد كان دنساً أصاب تلك الذوائب، ثم عنى
الشيب بإزالته وحرص على محوه وإحاطته إلى نقاء.

أيه أيتها الدنيا! لقد عشقناك راغبين، ثم أشقينا
كارهين، وكذلك العشق شقاء، والحب تعس، والهوى
هوان.

أيه أيتها الدنيا! لقد سألناك البقاء، وطلبنا إليك
الخلود، على ما فيك من أذى، وعلى ما تشتملين من ألم،

فأبيت ذلك علينا، وصرفته عنا؛ إذ كان الفناء لنا مقدوراً،
والبقاء علينا محظوراً.

أيه أيها الراغب في الدنيا الحريص عليها الذي كذب
فيها ظنون الحكماء، واتهم في حبها رأي الفلاسفة! لقد
خدعتك نفسك وأضلتك آمالك؛ فإنما أنت وأصحابك عرضة
لموت واقع غير مدفوع، وحمام نازل غير مردود.

دونك ما شئت من دروع ضافية وحصون واقية، ومن
معاقل وبروج، ومن أسلحة وقوة؛ فإن ذلك إن استطاع أن
يدفع عنك شيئاً من أذاة عدو، فلن يستطيع أن يرد عنك ما
تحمله إليك الأيام من ردي لا بد منه ولا مندوحة عنه.

لا أحذرك بغير علم، ولا أنهاك عن غير بصيرة، وإنما
أصدر في نصيحتي لك عن تجربة صادقة وبحث صحيح.
الموت واقع لا شك فيه، قد رهنته الطبيعة لوقت معين،
وجعلت له كتاباً ثابتاً وأجلاً محتوماً.

قد زالت الشمس والماء بين يديك، وأنت رجل تتحلل
الإسلام، فدونك الظهر، فأد فريضته وأقم صلاته. وقد
أنحل جسمك ومضى أجلك، وأدبرت عنك الحياة وأنت
إنسان ليس من طبيعتك الخلود، فدونك الموت فرد حوضه،

واحتس كأسه. أقدم أو أحجم فإنك ميت من غير ريب. لم
تكره الموت، ولم تُعَفْ كأسه وأنت لم تذقها ولم تبلّ منها
حلاوة ولا مرارة! هل وجدت الحياة عذبة المذاق لذيدة
الجنّي؟ كلا! ما أراها إلا كأساً نحتسيها غافلين عن
مرارتها وما فيها من غضاضة، فإذا أقبل الموت وقتنا ما
استقر في أمعائنا من هذه الكأس عرفنا مرارة العلقم
والصاب، وتبيننا أننا لم نكن إلا مخدوعين.

ألا إنك مخدوع فأفقد من غفلتك، ودع ما تجشمك
الحياة من المكروه، وما تصيبك به من الأذى، وما تحملك
عليه من إيثار البغضة على المحبة، فكل ذلك باطل لا خير
فيه. دونك الحب والمودة والإخلاص في الإخاء، فاغتم
نصيبك منها قبل أن يدركك الموت فتمضي وقد خسرت
الحق والباطل جميعاً.

أَسَيْتُ عَلَى الذَوَائِبِ أَنْ عَلاها

نَهَارِي الْقَمِيصُ لَهُ ارْتِقَاءُ

لَعَلَّ سِوَادَهَا دَنَسٌ عَلَيْها

وإِنْقَاءُ الْمُسْنِ لَهُ نَقَاءُ

وَدُنْيَانَا الَّتِي عُشِقَتْ وَأَشِقَتْ
كَذَاكَ الْعَشِيقُ مَعْرُوفًا شَقَاءُ
سَأَلْنَاهَا الْبِقَاءَ عَلَى أَذَاهَا
فَقَالَتْ عَنْكُمْ حُظْرَ الْبِقَاءِ
بِعَادًا وَقَعُ فَمَتَى التَّدَانِي
وَبَيْنَ شَاسِعُ فَمَتَى اللَّقَاءُ
وَدِرْعُكَ إِنِ وَقْتُكَ سِهَامَ قَوْمٍ
فَمَا هِيَ مِنْ رَدَى يَوْمٍ وَقَاءُ
وَلَسْتُ كَمَنْ يَقُولُ بغيرِ عِلْمٍ
سَوَاءٌ مِنْكَ فَتَاكَ وَاتِقَاءُ
فَقَدْ وَجِبَتْ عَلَيْكَ صَلَاةُ ظَهْرِ
إِذَا وَافَاكَ بِالْمَاءِ السَّقَاءُ
لَقَدْ أَفْنَتْ عَزَائِمَكَ الدِّيَاجِي
وَأَفْرَادُ الْكَوَاكِبِ أَرْفِقَاءُ

فيأسرني لتدركنا المنايا
ونحنُ على السجية أصدقاء
أرى جُرْعَ الحياةِ أمرٌ شيءٍ
فشاهدُ صدقَ ذلك إذ تُقَاءُ

- 14 -

أُفُّ لهذه الحياةِ وأُفُّ لهذا العالمِ! لقد احتبساني فيهما
أسيراً، وارتهناني عندهما بحيث لا أؤمل من أسرهما
فكاكاً ولا أرجو من سجنهما انطلاقاً. فكأنني وقد وقفت
على حال سيئة من الحياة ليس لي عنها مزحلاً ولا مندوحة،
قاف رؤية أرسلها ساكنة ليس لها إلى الحركة سبيل،
ونطق بها مقيدةً ليس لها من الإطلاق حظ.

أُفُّ لهذه الحياةِ وأُفُّ لهذا العالمِ! لقد أنهلاني الهموم،
وعلاني الخطوب، وأصابني من أحداثهما بعلل ليس لها
شفاء، وأدواء ليس لها دواء؛ فكأنما أصابتنى منهما تلك

العلة الباقية القديمة التي تصيب الأفعال الجوف وترد واوها
وياها ألفاً يعيي الأطباء شفاؤها، ويعجز الحكماء الطب
لها.

إيه أيها الجسم الذي فترت أوصاله، وانحلت قواه،
وطال عليه الأمد! لقد أنى لك أن تستبد بك الصحراء
ويتضمنك التراب.

أجل! لقد فترت أوصالك، وارتخت مفاصلك. وما ذاك
من شرب المدام ولا حب الندام، وإنما هي الخطوب المسرية
والهموم المدلجة، ألحت عليك فبدلتك من القوة ضعفاً، ومن
النشاط فتوراً.

لقد طال بي المقام حتى مللته، وطالت على الحياة حتى
سئمتها. فكم أنا معني بعشرة أمة قد حكمتها الذلة،
وسيطر عليها الظلم، واستبد بحقوقها الأمراء، يظلمونها
أشد الظلم، ويعسفونها أقبح العسف، ويكيدون لها شر
الكيد، ويعدون مصالحها، ويتجاوزون منافعها، وإنما هم
لها أجراء، وعنهما وكلاء.

أمة قد طالت صحبتي لها واختباري إياها؛ فما دلتني
التجربة ولا أرشدني الاختبار إلا إلى براءتها من الخير

وإقفارها من المعروف، وإلا إلى أن أشدها بالشر اتصالاً
وأكثرها فيه إغراقاً هم الشعراء الذين قد كانت تعقد بهم
آمال الإصلاح، ويناط بهم رجال الخير.

أمة ما أكثر قولها وأقل عملها! ما أكثر روايتها لأخبار
الجدود وأحاديث الأجواد! وما أشدّ بخلها بالمال وضمنها
بالثراء! كأن ما ترويه من حمد الكرم، وما تأثره من مدح
الجدود، يغيرها بالبخل والكزازة، ويرغبها في الظن والدناءة.

أمة جنت من ثمار الحياة ما لم تكن له أهلاً، ولقيت
من نعيمها ما لم تكن به خليفة، فأبطرته النعمة،
وأفسدها الغنى. ولم أر شراً من نفس الإنسان، إذا تجاوزت
قدرها جناح بعوضة. ساءت حالها، وفسدت طبيعتها، كأنها
القصيدة من الشعر يزينها الوزن الصحيح المستقيم، فإذا زيد
فيها حرف ظهر للسامع نكرها، وبان للسمع اختلالها.

أمة أظفتها الثروة، وأطمعتها الحياة، فتزيدت منهما،
وتلذذت بهما، كأنها النائم يلذ له النوم فيستزيد، غافلاً
عن أن زيادته إنما هي تقصير من أجله، واستعجال لموته.

سبحانك اللهم! لقد جل شأنك، وخفيت حكمتك على
العقول. بسطت الغبراء، ورفعت فوقها الخضراء، وأجريت

بينهما عالماً ما أعرف للخير فيه موضعاً، عالم عاقل ولكنه شرير. هل تعرف رذائله الحيوانات العجم؟ وهل تشاركه فيها المخلوقات البله؟ هل تحسد الجياد السود القاتمة أخواتها الغر الواضحة؟

كلا! ما أرى للحسد فيها أثراً، وإنما هو طبيعة الإنسان قد أفسده الطمع والشره، وغيره البخل والحرص.

أفي لك أيتها الدنيا المتقلبة! ما أرى أنك تثبتين على حال. وما أشبهك إلا بالحسنة الناعمة، ذات الدلال والغنج، وذات الجمال والبهجة، وذات المنظر الساحر واللفظ الخادع واللحظات المطمعة، ثم هي مع هذا كله طامث، قد لزمها الطمث، وحجبها الحيض، فما تستقيم أقرأؤها لطالبها، وما تتنظم أطهارها لمحبتها، على أنه بها كلف معنى، وعليها حريص معذب.

لقد هويك الناس فذكيت أهواءهم بالمنى، ونميتها بالآمال، حتى إذا جاء وقت الإثابة واقتضاء اللذات، أوقعتهم في اليأس المهلك والقنوط المميت. لقد شقي بك الأغنياء الذين هم أشد عليك حرصاً وأكثر فيك رغبة، واستراح منك الفقراء الذين هم أبعد منك مكاناً، وأقل بك اتصالاً!

لقد أفسدت عقولاً كانت خليقة أن تصلح، وعوجت
طرقاً كانت جديرة أن تستقيم. أولئك الفقهاء لا يتجادلون
إلا فيك، وأولئك القراء لا يتقرؤون إلا لك؛ فأما فقه الدين
واستظهار الكتاب، فشيء لا يحفلون به ولا يلتفتون إليه!
لقد أضللت العقول وأفسدت الطبائع حتى لم يبق
للنصح إليها طريق وكأنما النصح بالانصراف عنك إغراء
بشدة الحرص عليك.

مالي غدوتُ ككافٍ رُؤبةً قُيِّدتُ
في الدهرِ لم يُقدِرْ لها إجراءهُ
أعلتُ علّةً قال وهي قديمةٌ
أعيا الأطيبةَ كلهم إبراؤها
طال التواء وقد أنى لفاصلي
أن تستبدَّ بضمّها صحراؤها
فكُرتُ ولم تفُتُرْ لثُرْبِ مداميةٍ
بل للخطوب يغولها إسراؤها

مُلَّ المَقَامُ فكمُ أَعَاشِرُ أُمَّةً
أَمَرْتُ بِغَيْرِ صِلَاحِهَا أَمْرًا
ظَلَمُوا الرُّعِيَّةَ وَاسْتَجَاذُوا كَيْدَهَا
فَعَدَوْا مِصَالِحَهَا وَهَمُّ أَجْرًا
فَرَقًا شَعَرْتُ بِأَنَّهَا لَا تَقْتَنِي
خَيْرًا وَأَنَّ شَرَّهَا شُعْرًا
أَكْرَبْتُ أَحَادِيثَ الْكِرَامِ بِزَعْمِهَا
وَأَجَادَ حَبْسَ أَكْفِهَا إِثْرًا
وَإِذَا النُّفُوسُ تَجَاوَزَتْ أَقْدَارَهَا
حَدَّ الْبِعُوضِ تَغْيِيرَتْ سُجْرًا
كَصَحِيحَةِ الْأَوْزَانِ زَادَتْهَا الْقُوَى
حَرْفًا فَبَانَ لِسَامِعِ نِكْرًا
كَرَيْتُ فَسُرَّتْ بِالْكَرَى وَحَيَاتِهَا
أَكْرَبْتُ فَجَرَّ نَوَائِبًا إِكْرًا

سبحان خالقك الذي قرئت به
غبراء توقد فوقها خضراؤها
هل تعرف الحسد الجياد كغيرها
فالبهم تحسد بينها غراؤها
ووجدت دنيانا تشابه طامثاً
لا تستقيم لناكح أقرأؤها
وتجادلت فقهاؤها من حبها
وتقرأت لتتالها قراؤها
وإذا زجرت النفس عن شغف بها
فكأن زجر غويها إغراؤها

أيا بنة الماء، وذات النوب والأنباء! أنت التي لا تثبت على
حال ولا يستقرها أمر. أنت المضطربة الهائجة، والمرتبكة
المائجة. أنت الفرارة الخداعة، والمناحة المناعة.
أف لك! لقد قل فيك الخير، وكثر فيك الشر. ولقد
صغرت أمورك، وهانت الآمال فيك؛ فأعظم حظ الفائز بك
والظافر برغائبك، طعام، يسيغه، ورفث يناله.
تسيرين على غير حكمة مفهومة ولا نظام مألوف،
يسعد فيك المقيم الآمن، ويشقى بك المجد الطاعن.
قضاءً سبقت به الكلمة وجرى به القلم، فما يزال على
الناس جارياً، وعلى العقول خافياً، قد حير الألباء فهمه،
وأعيا الحكماء تعبيره.
أسلاف تسلف، وأخلاف تخلف، وملوك يزول عنها العز
ويفارقها السلطان ويسلمها الأحياء والأحياء، وآثام ما تزال
تجددها الحاجة، وسيئات ما يزال يخلقها الفقر والبؤس.

ونحن لكل هذه السهام أغراض، لا نحس ولا نشعر ولا
تسمو عقولنا إلى عظة ولا اعتبار.

دنياك ماويّة لها نُوبٌ

شئتِ سماويّةً وأنبياءُ

أفُّ لها جُلُّ ما يُفيد بها

مَنْ فاز فيها الطعامُ والباء

جُدُّ مقيمٍ وخاب ذو سفرٍ

كأنه في الهجير حُرْبَاء

أقضيةً لا تزال واردةً

تَحَارُّ في كونها الألياء

قام بنو القوم في أماكنهم

وغُيِّبَتْ في التراب آباء

وزال عِزُّ الأميرِ وافتُرقت

أحباؤه عنه والأحباء

وكلُّ حينٍ حُوبٌ ومعصيةٌ
زادتهما في الذنوب حَوْباء

- 16 -

إيه أيها المتفكر المتفهم والباحث المستبصر! لقد قضي
عليك أن تعيش في عصر ظهر فيه الجهل، وخفي فيه العلم،
وعم دهماء الحمق، واشتمل على أهله الجمود.
سبحانك اللهم! بك آمنت، ولك أذعنت. لك العبيد
والإماء، ورجال ونساء، لك الأرض والسماء، والهواء والماء.
لك النجوم الطالعة، والكواكب الساطعة.
قل ما شئت من ذلك لا يعبك بقوله حكيم، ولا ينكره
عليك فيلسوف. ثم دعني أستغفر الله وأتضرع إليه؛ فقد
انقضت عني مدتي وأسلمتني أيامي إلى الحين.
دعني أفرغ لما أنا فيه من خلوةٍ إلى نفسي وعنايةٍ بأمري.
فإنما نحن في أيام كثرت فيها الأسماء، وقل فيها الغناء.

يذكرون الكرم، والجود، والحق والفضيلة، والخير والبر،
وإنما هي ألفاظ تلفظها الأفواه وتلتقفها الرياح. يروون
الحكمة والعظة، ويؤثرون النصيحة والهدى، ويدرسون
العلم والشريعة، وإنما هي أكاذيب الرواة، وأحاديث
الغواة، وأفانين من التجارة اخترعها القدماء، يكسبون بها
عيشهم، ويشترون بها ثمناً قليلاً. دعني أفرغ لما أنا فيه، فقد
كذبتني الأماني، وتكشفت لي الآمال عن باطلها، وظهرت
لعيني الحقائق واضحة، ولكنها بشعة النظر مرة المذاق.

هل ترى هذه الشهب اللامعة إلا شباكاً قد أعدها
الدهر يلقيها على العالم فيصطاد بها فرائسه! أو ما
تبصركم ترك الردى في الناس من الأفاعيل: كيف فرق
بين الأصهار والأحماء، وكيف باعد بين الآباء والأبناء!.

عجياً للقضاء المحتوم والقدر المكتوب! لقد مضينا على
الخلق لا يردهما راد ولا يدفعهما دافع، حتى أصبح الأمل
معهما حمقاً، واليأس بين يديهما حزماً.

أيتها العصماء المكنونة، والحسناء المصونة، لا
يخدعك جمالك الخلاب للعقول للفتان للألباب. لا يخدعك
لحظك الفاتر، ولفظك الساحر. لا يخدعك خدك الأسيل،

وخصرك النحيل. لا يخدعك وجهك الذي تباهين به ضوء
النهار، وشعرك الذي تبارين به فحمة الليل. فكل ذلك إلى
زوال. إنما بدرك إلى أفول، وزهرك إلى ذبول، وجمالك
الفاتن إلى فناء. ارتقبي ذلك اليوم الذي سيصوب إليك من
الحمام سهماً لا يطيش، ونصلاً لا يخطئ، ورمية لا يحميك
منها معقل ولا حصن، خذي مكان العصماء من رأس
الجبيل، فإن الموت لاحقك لا محالة، ونازل بك من غير ريب!
أنى يكون الخلود أو يقدر البقاء لجسم ما أرى حياته
وصحته إلا رهناً باتفاق غرائزه، ووقفاً على التئام طبائعه؛
فهو صحيح إن استوين، وعليلٌ إن التوين.
أذعن أيها الإنسان لحكم الزمان، لا تناقشه حساباً،
ولا تسأله ثواباً، ولا تطلب منه لشيء علة، ولا ترجُ منه
لسؤال جواباً. إنما الزمان أعمى لا يبصر، وأصم لا يسمع،
وأحمق لا يعقل، وأعجم لا ينطق. ألا وإن حكم العجاوات
أن جباياتها مهذرة، وجرائمها مغتصرة.
ألا وإن دنياك نهار وليل، لا تثبت على حال، فهي
كالحية الرقطاء، ربما تعجبك ألوانها ولكن في نابها السم
الزعاف.

ألا وإن الناس بالموت مدينون، ولا بد لهذا الدين من
وفاء، ولهذا القرض من قضاء، والموت غريم لا يسهل رده ولا
يمكن الإلواء عليه.

ألا وإن الزمان قد قسم الحظوظ بين الناس، فأساء
القسمة، لم يراع في ذلك عدلاً ولم يتبع قاعدة، فأمات
بالظماً "كعب بن مامة"، وروى بنمير الماء بعده الكثيرين.

لا تلتمس لشيء علة، ولا تطلب لموجود سبباً؛ فذلك
شيء قد عمى عليك أمره، وحجب عنك سره. وانقسم العالم
منذ كان إلى حيوان نام حساس، ونبات ينمو ولا يحس،
وجماد قد حرم الحس والنمو معاً. وما أعرف لهذا الجسم
الذي رزق القوتين، وظفر بالفضيلتين، نافلة من فضل توثره
بالحياة والحركة، وتختصه بالحس والنمو دون الآخرين.

ما أجهل الناس، وما أضل عقولهم، وما أغفلهم عن
العواقب، وأعماهم عن مستقبل الأمور! لو أنهم عرفوا
حياتهم حق المعرفة وبلوها حق البلاء، لهانت عليهم ولصغرت
في عيونهم، فلم يغتل فيها بعضهم بعضاً. ولو أنهم إذ كبروا
منها صغيراً، وعظموها من أمرها حقيراً، وفرضوا لأنفسهم
حساباً تظهر فيه سيئاتهم وحسناتهم، وتبدو فيه نقائصهم

وفضائلهم، ويلقى بعده كل امرئ نتيجة عمله خيراً أو شراً،
لو أنهم إذ فعلوا هذا كله خافوا لحساب الذي فرضوه،
والميعاد الذي انتظروه، لما سفكوا بينهم من الدماء ما
يجاري الماء؛ ولكنها طبائع بلهاء، لا تعرف للحق طريقاً، ولا
تسلك إلى الهدى سبيلاً.

سلني عن أحق الناس بالرحمة وأولاهم بالرفق والرأفة،
أجيبك بأنهم أولئك الذين نشؤوا راحمين للضعيف عاطفين
على البائسين، ثم تنكرت لهم الأيام، وأرهقتهم من أمرهم
عسراً.

هذه أخلاقنا وتلك خلالنا، ما أحمد فيها خلقاً ولا
أرضى منها خلة، ونحن بعد ذلك بأنفسنا معجبون،
وبأخلاقنا مفتونون، نغضب من مقالة الحق، ونحقد على
صادق رمانا بخسة الأصل ولؤم الطبع. نعم! نحن أخساء
لؤماء.

وأنت أيها الأب الذي سمته التواريخ آدم فغلبت على
لونك السواد، وسمت زوجك حواء فجعلت على لونها مشوباً
بحمرة، لقد ائتلف منكما مزاج جمع فيه الخير والشر،
ولكن الشر عليه غالب، والسوء فيه موفور.

كفوا أيها الناس من غلوائكم، وخففوا من غروركم؛
فإنما أنتم للأيام أغراض غير مرموقة، وأهداف غير
مرحومة. ولعمري لن تشفق عليكم الأيام إلا إذا أشفقت
الرحا على ما تطحن من حب، ولن ترثي لكم السنون إلا إذا
رثت الأرض لما تضم من الأشلاء. ولكني ما أرى لكم من
الذكاء حظاً، وما أعرف بين عقلائكم وبين بله الحيوان
فرقاً، سواء منكم ذو العقل الراجح والرأي الصائب. ما
أجد رجحان أحلامكم وصواب آرائكم، يزن خفة أحلام
الطير في الهواء، والسمك في الماء.

أفيقوا أيها الناس واستبصروا؛ فإنما أنتم للأيام هزأة
وللزمان ضحكة وللحوادث مستذولة. أرأيتم إلى ذلك الملك
العزيز قد احتدت شوكته، واشتدت سطوته، وعظم
سلطانه، كيف أغارت عليه الأيام زاريةً عليه محتقرة له
تستذله استذلال الأرنب!

أجل! إنكم لتفاضلون في الحياة نعمة وبؤساً، وإن
أقداركم لتختلف رفعة وضعة، ولكنكم جميعاً إلى فناء،
قد اختلفت إليه الطرق وتشعبت إليه المسالك. فلئن كان
الفقر لا يميت الملوك وأصحاب النعمة والثراء، لقد جعل لها

الدهر من غناها رسداً مهلكاً، ومن ثروتها علة مميتة؛ فهم كالزهرة النضرة، لا يذبلها وقع الأقدام، ولكن يذبلها شم الأنوف.

فيم الطعان والضراب! وفيم الرماء والجلاد! إنما تقتلون أنفسكم في باطل، وتسفكون دماءكم في زور. ولكن! هل ينفعكم النصح، أم هل تفيدكم الموعظة؟ لقد اسودت قلوب، وضلت عقول، ولقد أصغى الحكيم إلى نداء الحق، وصم عنه الجاهل المغرور.

ما الذي أعجيبكم من الأيام فتهالكتم عليه؟ وما الذي راقكم من الحياة فتفانيتم فيه؟ إن الأيام لتسلك سبيلها إلى الفناء صماً عمياً، حتى ليكاد المقامر أن يكون أوثق منها بالربح وأضمن منه لإصابة الخير.

لقد مضى صاحب تيماء، وبقيت تيماء بعده ناطقة بالعبرة والموعظة لو تسمعون أو تعقلون، لقد أومأت إليكم الثريا واعظة، وأشارت إليكم ناصحة، ثم انقطع إيماؤها، وسكنت إشارتها. لقد أعجزت سرعتها سرعتكم، وأعيا جدها جدكم، وشهدت نجومها الستة بما أغفلتم عنه من

آية بينة. فعلت كل ذلك فلم يفهم عنها إلا الحكيم؛ على أنه لم يعد من فهمه وفقهه إلا بالحسرة والأسى.

أسهلوا أيها الناس فقد أحزنتم، وياسروا فقد عاسرتم، واعلموا أنكم في حكم الموت سواء، ليس لغنيكم على فقيركم فضيلة، ولا لأميركم من حقيركم مزية، إنما هي طريق مسلوكة إلى الفناء، أشد وحشة من البيداء، وأكثر ظلمة من غير الفلا. ألا فليؤاس بعضكم بعضاً! لقد استوتيم في الموت فلم لا تستوون في الحياة؟ لم أجد منكم في الحياة موسراً ومعسراً، ومنعماً وبائساً! ألا فلتقتسموا تعب الحياة الفانية، كما اقتسمتم راحة الفناء المقيم.

فُقِدَتْ فِي أَيَّامِكَ الْعُلَمَاءُ

وَادْلَهَمَّتْ عَلَيْهِمُ الظُّلْمَاءُ

وَتَغَشَّى دِهْمَانَا الْغَيُّ لَمَّا

عُطِّلَتْ مِنْ وَضُوحِهَا الدِّهْمَاءُ

لِلْمَلِيكِ الْمَذْكُورَاتُ عِبِيدٌ

وَكَذَلِكَ الْمُؤَنَّثَاتُ إِمَاءُ

فالهلالُ المنيفُ والبدرُ والفَرُّ
قَدُ والصَبْحُ والثرى والماء
والثرىَّ والشمسُ والنارُ والنُّثْرَةُ والأرضُ والضحى والسما
هذه كلها لربك ما عا
بك في قول ذلك الحكماء
خُلني يا أخيَّ أسْتَغْفِرُ اللهَ فلم يبق فيَّ إلا الدِّماءُ
ويقال الكِرَامُ قولاً وما في العَصْرِ إلا الشخوص والأسماءُ
وأحاديثُ حَبْرَتِهَا غَوَاةٌ
وافترتها للمكسب القُدَماءُ
هذه الشهبُ خُلَّتْهَا شَبَكَ الدهر لها فوق أهلها إلماء
عجباً للقضاء تَمَّ على الخَلْقِ فهَمَّتْ أن تُبْسِلَ الحَزَماءُ
أو ما يُبصرون فَعَلَ الردى كيف يبيدُ الأصهار والأحماء
غَلَبَ المَيْنُ منذ كان على الخلق وماتت بغيظها الحكماء
فارقُبي يا عصماء يوماً ولو أنك في رأس شاهقٍ عصماء

وأرى الأربع الغرائز فينا
وهي في جنة الفتى خُصماء
إن توافقن صحّ أولاً فما يُنمكّ عنها الإمراض والإغماء
ووجدتُ الزمان أعجمَ فظاً
وجُبَّاراً في حكمها العجماء
إنّ دنيّاك من نهارٍ وليلٍ
وهي في ذاك حياة عرّماء
والبرايا حازوا ديونَ منايا
سوف تُقضَى ويحضرُ الغرّماء
وردّ القومُ بعدما مات كعبٌ
وارتوى بالنميرُ وفدّ ظمء
حيوانٌ، وجامدٌ غير نامٍ،
ونباتٌ له بسقيّاء نماء
وكوأنّ الأنام خافوا من العقبيّ لما جارت المياه الدماء
أجدرُ الناس في العواقب بالرحمة قومٌ في بدّتهم رُحماء

وَعَضِبْنَا مِنْ قَوْلِ زَاعِمٍ حَقٌّ
إِنَّا فِي أَصْوَلِنَا لُؤْمَاءُ
أَنْتَ يَا آدَمَ السُّرْبِ حَوْأُ
وَكُفِيهِ حَوْأٌ أَوْ أَدْمَاءُ
قَرَمْتَا الْأَيَّامُ هَلْ رَكَّتِ النَّحَامُ لِمَا ثَوَىٰ بِهَا قَرِيَاءُ
عَالَمٌ حَائِرٌ كَطَيْرِ هَوَاءِ
وَهَوَافٌ تَضُمَّهَا الدِّمَاءُ
وَكَأَنَّ الْهَمَامَ عَمَّرُوا بِنِ دَرْمَا
ءَ فَلْتَهُ مِنْ أُمَّه دَرْمَاءُ
وَالْبَهَارُ الشَّمِيمِ تَحْمِيهِ مِنْ وَطِ
ءَ مُعَادِيكَ أَرْنَبُ شَمَاءُ
وَعَرَانَا عَلَى الْحُطَامِ ضِرَابُ
وَطَعَانٌ فِي بَاطِلٍ وَرَمَاءُ
أَسْوَدُ الْقَلْبِ أَسْوَدٌ وَمَتَى مَا
تَصْنَعُ أُذُنِي فَأُذِنُهُ صَمَاءُ

قد رمى تابلُ فأنمى وأصمى
ولياييك ما لها إنماء
إنَّ ربَّ الحصن المشيد بتيما
ءَ تولى وخلفت تيماء
أومات للحداء كف الثريا
ثم صد الحديث والإيماء
شهدت بالملك أنجمها الستة
ثم الخضيبُ والجذماء
فهمُ الناس كالجهول وما يظفرُ
إلا بالحسرة الفهماء
تلتقي في الصعيد أمٌ وبنات
وتساوى القرناء والجماء
وأنيقُ الربيع يُدركه القيظُ
وفيه البيضاءُ والسحماء

وطريقي إلى الحمام كريمة
لم تُهَبْ عند هَوْلِهِ اليَهُمَاءِ
وَلَوْ أَنَّ الْبِيدَاءَ صَارَ حَرْبٍ
وهي من كلِّ جانبٍ صَرْمَاءِ
كيف لا يُشْرِكُ الْمُضِيقِينَ فِي النُّعْمَةِ قَوْمٌ عَلَيْهِمُ النِّعْمَاءُ

- 17 -

يا له من فقيه قد أكثر فيكم الوعظ، وأثقل عليكم
النصح، وتردد على نساءكم مرشداً هادياً، ومذكراً
داعياً، وأنتم له مصغون وحوله محتشدون، تذرّفون لمقاتته
الدموع، وتفطرون لألفاظه القلوب! أبصروا فقد عميتم،
وانتبهوا فقد غفلتم!

ألا إن صاحبكم محتال كاذب، وغرّار خادع، يظهر
لكم النسك، ويخفي عنكم الإفك. ينهاكم عن الخمر
وهو لها مدمن، ويظهر لكم الفقر وإنما أفقرته معصيته.

سلوه عن كسائه أين أضله وفيه فقد، يشك لكم صرف
الأيام وتتابع الأحداث. ثم سلوا الخمار عن هذا الكساء
تجدوه عنده رهيناً بدنٍ من راح أو زق من عقار.
ألا إن شر الناس المقتطفون لما ينهون عنه. إنهم يسيئون
من جهتين: يسيئون لاقتراف الآثام، ويسيئون لغش الناس
وتضليل العقول.

رُويَدَكَ قَدْ غُرِرْتَ وَأَنْتَ حُرٌّ

بصاحب حيلةٍ يعظُّ النساءَ

يحرِّمُ فيكمُ الصهباءَ صُبحاً

ويشربها على عَمَدٍ مساءً

تحسَّاهَا فَمَنْ مَزَجَ وَصِرْفٍ

يُفَعِّلُ كَأَنَّمَا وَرَدَ الْحِسَاءَ

يقول لكم غدوتُ بلا كساءٍ

وفي لذاتها رهن الكساء

إذا فعل الفتى ما عنه ينهى

فمن جهتين لا جهة أساء

ما أشد اغترارنا بالحياة واسترسالنا في الأمل! نرجو
العيش راغبين فيه، ونرجئ الخير متبرمين به، مفرقين في
سكر عميق، لا ينبهنا منه إلا صيحة الموت ودعوة الحمام.

نرجو الحياة فإن هَمَّتْ هَوَاجِسُنَا

بالخير قال رجاء النفس إرجاء

وما نُفِيقُ من السُّكْرِ المحيطة بنا

إلا إذا قيلَ هذا الموت قد جاء

الصَّمْتُ الصَّمْتُ! احتفظ به واحرص عليه ؛ فإنه مأمّن
لك من الشر ومنجاة من الزَّلَل. إخبأ نفسك تحت لسانك، لا
تحركه فيظهر ما يعيبها من نقيصة، وما يشينها من رذيلة.
ما أرى كالكلام مصدراً للإثم، ولا كالصمت مبرئاً منه.
الأناة الأناة، والحزم الحزم! لا يُغضبك تفوق الناس
عليك وسبقهم لك وإن أحسست من نفسك الفضيلة وعرفت
لها التقدم؛ فإن الجبل الشاهق لا يتأذى حين يعلوه الرقيب
صاحب الفتنة، ويتسنمه الشرير حليف السيئة.
مم تهرب، وإلى أين تفر! الريث الريث! لقد أزعجك
الوباء الذي ألم ببلدك، فهل تعرف بلداً غير موبوء! تفر من
رذائل أصحابك، فهل تعرف أصحاباً خلواً من الرذائل!! البس
العالم على علاته، واصحبه على ما فيه من سوء.
القناعة القناعة! أرح نفسك من طمع لا يفيد، وشره لا
ينفع، ولا تلم الحظ، ولا تتكر المصادفة؛ فكذلك طبيعة
الزمان. أنظر إلى الحسناء الفاتنة يسببها القبيح الشرير،

وانظر إلى العقار ذات الجوهر النقي يسبؤها ألام الناس طبعاً
وأكدرهم خلقاً. أرح نفسك من هذا العناء؛ فإن الغاية
واحدة، وإن الملك والفقير في حكمهما سواء.

قد نال خيراً في المعاشِ ظاهراً

من كان تحت لسانه مخبوءاً

بإاء الكلام بمأثمٍ والصمتُ لم

يكُ في الأعمِّ بمأثمٍ ليبوءا

إن يرتفع بشرُّ عليك فكم غدا

علّم بتابع فتنة مريوءا

مهلاً أميناً وبأُ فررت وهل ترى

في الدهرِ إلا منزلأ موبوءا

تُسبى الكرائمُ والكُميتُ شرابها

يُنفسى لألام شاربي موبوءا

حلفُ العبائة سوف يُصبحُ مثلهُ

ملكٌ ويترك طيبهُ المعبوءا

احجبوا عن نسائكم وبناتكم من العلم ما لا ينفعهن
ولا يجدي عليهن. دعوا ذلك إلى ما يفيد المرأة من حيث هي
أم وصاحبة بيت. علموها النسج والغزل والردن، ودعوا
القراءة والكتاب. أقرئوها الحمد والإخلاص؛ فهما تجزئان
عنها في الصلاة ما تجزئ عنها يونس وبراءة.

احجبوا أصواتهن عن الأذان، كما تحجبون أشخاصهن
عن الأبصار. إنكم لتهتكون الستر حين تستمعون من خلفه
غناء القيان.

عَلِّمُوهُنَّ الْغَزْلَ وَالنَّسْجَ وَالرِّدْنَ وَخَلِّوْهُنَّ كِتَابَةً وَقِرَاءَةً
فَصَلَاةً الْفَتَاةَ بِالْحَمْدِ وَالْإِخْلَاصِ تُجْزَى عَنْ يُونُسَ وَبِرَاءَةَ
تَهْتِكُ السُّتْرَ بِالْجُلُوسِ أَمَامَ السُّتْرِ إِنْ غَتَّتِ الْقِيَانَ وَرَاءَهُ

آثر نفسك بالعزلة، وزينها بالوحدة؛ فإنك إن تكن
راغباً في الكمال طامعاً فيه، لم تجد أدنى إليه من الوحدة
التي هي أخص صفات الله. وإن تكن رابئاً بنفسك عن الشر
ضائماً بها على الأذى، فلن تجد أوقى لك ولا أجدى عليك من
الرغبة من عشرة الناس، ملوكهم وسوقتهم، سراتهم
وصعاليكهم. .

أجل! إنك لن تجد أحفظ لك من العيب، وأضن بك على
الريب، وأنزه لنفسك، من الأذى، وأعصم لقدرك من
الضعة، كالعزلة واجتتاب الناس، وإن جرّ عليك الفقر
والضييق. العزلة مكن عيوبك، وستر لما أنت فيه من رذيلة،
فاحذر أن تهتك هذا الستر فيظهر الناس على ما خلفه.
والعزلة جنة لك من شرور الناس وأذاتهم، فاحذر أن تدع هذه
الجنة فينالك من ضررهم ما لا تطيق.

أف للناس رجالاً كانوا أم نساءً؛ فإنهم أهل شر وأذى،
يمقتهم الحكيم ويذمهم العاقل، لا يحمد منهم خلة ولا
يرضى لهم خلقاً. هم في الليل وفي النهار جناة أشرار، لا
يعصمك منهم إلا اجتنابك لهم.

إني لأعظك بالعزلة حين قُدرت عليك الحياة فلم تجد
عنها مزحلاً. وإني لأكره الحياة لمن لم يبيلها، وأمقت العيش
لمن لم يذقه، وأمنى للوليد الذي لما يعرف من الحياة حلواً ولا
مرا ولما ير من العيش خيراً ولا شراً، موتاً يريجه من مستقبل
أيامه ومستأنف زمانه. موتاً يصرفه عن ثدي أمه قبل أن
يرتضع منها قوتاً يشوبه الشر وغذاءً يخالطه سوء. موتاً
يقطع ما ينطق به لسان حاله من عبارات الشك في مستقبل
أمره، أيكون خيراً أم شراً، وعرفاً أم نكراً؟ أيكون إلى
أهله محسناً أم مسيئاً، ولهم نافعاً أم ضاراً.

توحّد فإنّ الله ربُّك واحدٌ

ولا ترغبن في عشرة الرؤساء

يُقلُّ الأذى والعيب في ساحة الفتى

وإن هو أكدي قلة الجساء

فأفٌ لعصريهم نهارٍ وحنديسٍ
وجنسي رجالٍ منهم ونساء
وليت وليداً مات ساعةً وضعه
ولم يرتضع من أمه النفساء
يقول لها من قبل نُطقِ لسانه
تُفيدين بي أن تُنكبي وتسائي

- 22 -

الويلُ كل الويل للعلماء، والخسر كل الخسر
للحكماء، إذا لم يقدر لعلمهم أن ينفع الناس شيئاً، ولم يتح
لحكمتهم أن تكف عنهم سوءاً.
لقد تم في الناس قضاء الله بما هو كائن من خير
وشر، فهو يمضي لا معقب لحكمه ولا راد لأمره. وعبثاً
يحاول المصلحون أن يغيروا منه قليلاً أو كثيراً. أجل! لقد
أمضى الله القضاء بما شاء، فليس لك منه مفر ولا معتصم.

دونك الأرض فاتخذ فيها نفقاً ، ودونك السماء فاتخذ إليها
سلماً؛ فإن أعجزك ذلك، وهو معجزك من غير شك، فاذعن
لما قضى الله عليك؛ فإنك لن تستطيع من ملكه خروجاً ،
ولن تملك من قدرته إيقاعاً.

سرى آثار من مضى قبلك؛ فإنك لهم تابع، ولخطاهم
مترسم. عاشوا عبيداً أذلاء، فعش مثلهم عبداً ذليلاً.

لقد ملكني العجب من هذا العالم، فما أنفك مغرقاً
فيه، مطيلاً له، أرى فيه السعيد والشقي، والفقير والغني،
وأجد فيه الريان يكاد يقتله الرى، الصديان يكاد يخترمه
الصدى.

والدهر على الناس مسيطر، قد عظم سلطانه واشتدت
سطوته، ينالونه بما شأؤوا من عيب له وطعن عليه، فلا
يصيبه منهم شيء، ويرميهم بسهامه المتصلة ونصاله
المتتابة، فلا يخطئهم منها سهم. جدوا ما شئتم في عناد
الدهر وخصامه، وفي ذمه والزراية عليه؛ فليس ذلكم براه
عنكم حكمه، ولا بقابض عنكم يده. إنه عليكم
لمسيطر: يميئكم ويحيل أجسامكم إلى ما شاء من مادة،
ويمنعها ما أحب من صورة. انظروا إلى هذه الغصون

النضرة، والأشجار الخضرة، هل هي إلا عظامكم بعد
البلى، وهل ماؤها إلا دماءكم بعد الفناء!!
ألا إن الشر في هذه الحياة واقع، ليس له دافع؛ وهو
نقاد لا يغفل، وباحث لا يخطئ. ألا وإن أكثر الناس منه
حظاً وأعظمهم منه نصيباً، أشدهم له فهماً وأكثرهم منه
احتياطاً.

أبيحوا بينكم الثروة، وأشيعوا فيكم المعروف؛ فلن
ينفعكم حرص، ولن يفيدكم اقتصاد، ولن يكون
منفقكم جواداً ولا باذلكم كريماً حتى يكثُر الإنفاق
ويوسع البذل.

أقدموا ولا تحجموا. دعوا التردد جانباً وانبذوه ناحية،
فإنكم صائرون إلى ما تكرهون طائعين أو راغمين. أقدموا
أعزاء قبل أن تكرهوا أدلاء صاغرين.

لقد آن لكم أن تستبصروا، وحن لكم أن تتبهبوا،
وحق عليكم أن تفيقوا. ألا إن ما أنتم فيه من سنة وسيرة،
ومن شريعة ودين، ليس إلا مكر الأقدمين، اتخذوه سبيلاً
إلى جمع الحطام، وإحراز الثروة، فأدركوا ما أملوا، وبلغوا

ما أرادوا، ثم مضت أيامهم وانقضت مدتهم، فلتبّد معهم سننهم السيئة وأصولهم الضارة.

لقد خدعكم الخادعون، وعبث بألبابكم العابثون فمَنوكم الحياة الثانية، وزعموا لكم انقضاء الدهر وانتهاء أجله، وأنه عنكم مرتحل ولكم تارك، وأن الأيام لم يبق فيها إلا بقية الروح، في جسم المذبوح. لقد كذبوا! ما يعرفون للدهر أجلا، وما يعلمون له انقضاء، وإنما هي ظنون مرجمة، وأنباء متوهمة، ألا فأعرضوا عن مقالة الزعماء الكاذبين، والأغوياء المضلين. لا تيأسوا من الدهر ولا تطمعوا فيه، ولكن القصد بين الحلتين، والاعتدال بين الخصلتين؛ فإن اليأس من الدهر هلك، والاطمئنان إليه غرور، وكيف يسر ساعة في الدهر من يعلم أن له من الموت غريماً لا يرد، وطالباً لا يدفع.

إنكم لتخدعون عن أنفسكم بأواصر القربى وروابط المحبة، وإنما هي الشر كل الشر والخطر كل الخطر. فالحذر الحذر من أضرارها، والتقية التقية من آثامها! فما آذاك مثل قريب، ولا ضرك مثل حبيب.

إذا كان علم الناس ليس بنافع
ولا دافع فالخسر للعلماء
قضى الله فينا بالذي هو كائن
فتم وضاعت حكمة الحكماء
وهل يابق الإنسان من ملك ربه
فيخرج من أرض له وسماء
سنتع آثار الذين تحملوا
على ساقية من أعبر وإماء
لقد طال في هذا الأنام تعجبي
فيا لرواء قوبلوا بظماء
أرامى فتشوى من أعاديه أسهمي
وما صاف عني سهمه برماء
وهل أعظم إلا غصون وريقة
وهل ماؤها إلا جنى دماء

وقد بان أن النحس ليس بغافل
له عمل في أنجم الفهماء
ومن كان ذا جود وليس بمكثر
فليس بمحسوب من الكرماء
نهاب أموراً ثم نركب هولها
على عنت من صاغرين قماء
أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما
دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا
وبادوا وماتت سنة اللؤماء
يقولون إن الدهر قد حان موته
ولم يبق في الأيام غير ذماء
وقد كذبوا ما يعرفون انقضاءه
فلا تسمعوا من كاذب الزعماء

وكيف أقضي ساعةً بمسرةٍ
وأعلم أن الموت من غرمائي
خذوا حذراً من أقرين وجانبي
ولا تذهلوا عن سيرة الحزماء

- 23 -

الترف في يسرك، صديقك في عسرك؛ فإن من سوء
النية وقبح الخلة أن تتخذ الأصدقاء تدفع بهم عن نفسك
الأذى وتقيها بهم المكروه أيام بؤسك، حتى إذا أيسرت
وأعسروا، ضربت عنهم صفحاً وطويت عنهم كشحاً. هذه
خلة من الأثرة سيئة، وخصلة من حب النفس مذمومة. وإنما
الحق عليك أن تخلص للأصدقاء في النعماء والبأساء.
وإن امرأ قد أمدته الحياة بالنعمة والثروة فهو من العيش
في دعة وخفض، يقضي حاجته من اللذات على اختلافها،

ثم يترك إخوانه فريسة للعدم ودريئة للبوؤس، لجاهل حق الأخوة، وجاحد واجب المودة.

وليس من الحزم ولا من صدق الرأي للسخيّ الجواد أن يُشيع السخاء ويذيع الجود في أهله وأقاربه قابضاً يده عن غيرهم من الناس؛ فإن لأهله ولأقاربه عليه حقاً هو قاضيه، وديناً هو مؤدّيه، فأما الأبعدون فالتكرم عليهم فضيلة، والإحسان إليهم نافلة، والتعهد لهم معرفة بمواضع الأمور.

إذا صاحبت في أيام بوؤسٍ

فلا تنس المودة في الرخاء

ومن يُعَدِّمُ أخوه على عناءه

فما أدّى الحقيقة في الإخاء

ومن جعل السخاء لأقربيه

فليس بعارفٍ طُرُقِ السخاء

أيها الملوك الأعزّاء، والأقوال المُشرفون! لقد فزتم بما
تحبون من طول الحياة وتأخر الأجل؛ فما لكم لا تبتدرون
الخير ولا تستبقون إلى الحسنة! ما لكم تُرجئون تشييد
المكرّمات وبناء الصالحات إلى مستقبل من الأيام قد لا
تدركونه، ومستأنف من الدهر قد لا تبلغونه، مغترين
بإملاء الأيام لكم وإبقائها عليكم!!

ما لكم لا تدعون ما أنتم فيه من خمول، ولا تتركون
ما أنتم عليه من ضعف، مُحجمين لا تقدّمون، ومبطنين لا
تُسرعون، مستتيمين إلى اللدّة، لا تطمح نفوسكم إلى
المجد، ولا تسمو إلى المآثر الباقية! أقدموا! فربُّ مُتُرفٍ شهد
الهيّجاء، وربُّ عاشق للنساء كلف بهن صريع بجمالهن، قد
ترك اللهو والباطل، ورغب في الجدِّ فأبلى فيه البلاء الحسن.
أيها الناس! أنتم مصدر ما تلقون من ظلم، وأصل ما
تقاسون من عسف. فنيتم في الملوك وأذلتهم لهم أنفسكم،
تشقون ليسعدوا، وتخافون ليأمنوا، وتأرقون ليناموا. غلوتم

في ذلك وأسرفتم فيه، فقدستهم طائفة منكم عن الخطأ،
ووصفتهم بالعصمة، وزعمت أنهم الناطقون والعالم صامت،
والمهتدون والحياة خائفة. انتظروا الإمام المعصوم، ورجعوا
الناطق المرشد والهادي الذي لا يخطئ. لقد كذبت ظنونهم،
وساءت آرائهم، وأخطوا قصد السبيل. إن هذا الإمام الذي
ينتظرونه، والهادي الذي يرجونه، لبين ظهرانيهم، يأمرهم
بالعرف فلا يأترون، وينهاهم عن الجهل فلا ينتهون،
يرغبهم في الخير فيصدون عنه، ويرهبهم الشر فيرغبون فيه:
ذلك هو العقل، يخلص لهم فيستغشونه، ويجد في نصحهم
فيختانونه. أطيعوه أيها الناس تهتدوا، وأطيعوه تترشدوا؛ إنما
هو مصدر الرحمة، ومنشأ النعمة، في السفر والحضر، وفي
الظعن والإقامة.

أيها الناس! إنكم لا تنتظرون إماماً معصوماً، ولا
ترجون هادياً موقفاً، وإنما هي بدع متحللة ومذاهب
مخترعة، اتخذتموها أسباباً تصلون بها بين رؤسائكم وبين
الدنيا، وجعلتموها طرقاً ترضون بها تلك النفوس التي لا
ترضى، والأهواء التي لا تقنع، لا يصدقكم عن ذلك رحمة،
ولا تعوقكم عنه رافة، لا تبالون أظلمتم قوياً أم ضعيفاً؛ ولا

تحفلون أعسفتم رجلاً أم امرأة، كل ذلكم عندكم سواء
في مرضاة الرؤساء. ذلك شأنُ زعيمكم الذي جمع الزنج
بالبصرة، فأفسدوا فيها ولم يصلحوا، وأسأؤوا ولم يحسنوا.
رؤّعوا العذراء في خدرها، وأزعجوا الأمن في سرّيه. وذلك
شأن زعيمكم القرمطي بالأحساء، جمع أوشاب الناس
وقمّامتهم فأزعج الحاجّ وانتهك حرمة البيت وأهدر دماءً
معصومة، وأزهق نفوساً محرمة، كل ذلك ليرضى نفساً
زاهدة إلا في الشر، راغبة إلا عن المنكر. ولكن! هل يجدي
النصح، وهل تنفع الموعظة، وهل يحتمل قول الحق؟! ألا إني
أعظك أيها المصلح الحكيم أن تعتزل الناس وتخلّي بينهم
وبين ما يشتهون؛ فما أعرف أثقل عليهم من كلمة حق، ولا
أبغض إليهم من دعوة إلى خير.

يا ملوك البلاد فزتم بنسء الـ

عُمُر والجورُ شأنكم في النساء

ما لكم لا ترون طُرُقَ المعالي

قد يزور الهيجاء زيرُ نساء

يرتجي الناس أن يقوم إمام
ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العق
ل مشيراً في صبحه والمساء
فإذا ما أظعته جلب الرح
مة عند المسير والإرساء
إنما هذه المذاهب أسبا
ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو
ن لدمع الشماء والخنساء
كالذي قام يجمع الزنج بالبص
رة والقرمطي بالأحساء
فأنفرد ما استطعت فالقائل الصا
دق يضحى ثقلاً على الجلساء

ما أشدَّ بغض النفس للنصيحة وامتناعها على الإرشاد!
لقد نصحت لها مخلصاً، وأوصيتها صادقاً، فما سمعتُ لي،
وما أصغتُ إليّ. وهي بعد ذلك كثيرة الخطأ جمة الزلل، لا
يبلغ الإحصاء أغلاطها، ولا ينال العد زلّاتها، غافلة عن
الحق، بصيرة بالباطل، زاهدة في القصد، حريصة على
الإسراف، تكدّ وتشقى وتتكلف السعي والمشقة في سبيل
الرزق. ولو أنها ودّعت واطمأنت لجاها رزقها المقدور
ونصيبها المقسوم، سواء نأى عنها مكانه أم دنا، وسواء
قرب أم بعد، ولكن العناد مطية الألم، وسبيل العناء.

أوصيتُ نفسي وعن ودّ نصحتُ لها

فما أجابتُ إلى نُصحي وإيصائي

والرملُ يشبهه في أعداده خَطِّي

فما أهُمَّ له يوماً بإحصاء

والرزقُ يأتي ولم تُبَسَطْ إليه يدي
سَيِّانٍ في ذاك إِدْنائِي وإِقْصائِي
لو أنه في الثُّرَيَّا والسَّمَاكِ أو الثُّنْ
عُرِي العُبُورِ أو الشعْرِي العُمَيْصَاءِ

- 26 -

مكُلُّ النفس الإنسانية ثبتت طبيعتها لا تتغير، واستقرت أصولها لا تتبدل، ثم عرضت لها من الحياة مظاهر أترت فيها فغيرت أهواءها وبدلت شهواتها، تغييراً لا يلبث أن يزول، مثل البحيرة الهادئة والغدير الساكن عصفت بهما الريح فهاجت أمواجهما وأنشأت على سطحيهما من الحباب كرات لا تلبث أن تزول بسكون الريح. ذلك مثل صادق لنفس الإنسان الثابتة وأهوائه المتغيرة. عنها صدرت تلك الأهواء، فخيّل إليك أنها باقية بقاءها، ثابتة ثباتها، ولكنك لا تلبث ن ترى حالاً طارئة وهوى جديداً. لقد كنت تحب أسماءً وتكلفُ بها، وتعتقد أن غرامك بها باق بقاء الدهر،

خالدٌ خلود الزمان، فإذا طول الأمد واختلاف ألوان الحياة
قد عبث بهذا الغرام فغيّره وأخذ يمحوه من قلبك قليلاً
قليلاً، ويُجَلِّ مكانه غراماً طريفاً، ثم أصبحت وقد نسيت
أسماءً، وأصبحت بهند كلفاً مشغوفاً. وما أراك إلا سالكاً
بهذا الحب الجديد سبيلك في ذلك الحب التليد.

أجل! ليس في العالم طريف ولا في الحياة جديد، وإنما
العالم والحياة مظاهر يماثل بعضها بعضاً. فالأقوال مرآة
الناس منها السيء والحسن. والناس مرآة الأيام، ثابتة في
نفسها متغيرة في شكلها، منها الظلمة والنور، ومنها الليل
والنهار، ظاهر متغيّر، وطبيعة ثابتة دائمة. ضياء يملأ
النفوس انشراحاً، وظلمة تملؤها انقباضاً، والحقيقة واحدة؛
فلكٌ يدور بالخير والشر، ويجري بالسعد والنحس.

لم أر أشد حمقاً ولا أكثر بلكاً من قوم ظنوا تغيّر
الزمان وتبدّل الأيام، وانتظروا أن تطيعهم حركة الفلك
فتستحيل من شر إلى خير ومن بؤس إلى نعيم؛ إذ ذاك تصلح
النفوس الفاسدة، وتصح الطبائع المريضة، وتُملأ الأرض
عدلاً كما ملئت جوراً، وتسكن الأرنب إلى السبع، ويأنس

العصفور إلى الصقر. خيالٌ ما أبعدُه من الحق، وأدناه من
المحال!

ألا لا يخدعُكَ هذا الوهم، ولا يغرنك هذا الأمل! إنما
العالم على حاله خيرٌ يمازجه شرٌّ، ونعيم يشوبه بؤس؛ فلا
تحاول له تغييراً ولا تطلب له تبديلاً. ولكن إن استطعت أن
تَرِدَ بنفسك الصادية مناهل الخير عذبةً، وشرائع الفضيلة
صافية، فافعل، فأنت الموفق السعيد.

القلبُ كالماء والأهواء صافيةٌ

عليه مثلَ حَبَابِ الماءِ في الماءِ

منه تَنَمَّتْ ويأتي ما يُغَيِّرُهَا

فِيخْلُقُ العهدُ من هُنْدٍ وأسماءِ

والقولُ كالخلقِ من سيءٍ ومن حسنٍ

والناسُ كالدهرِ من نُورٍ وظلماءِ

يقالُ إن زماناً يستقيدُ لهم

حتى يُبدلَ من بُؤسَيِ بِنَعْماءِ

ويوجد الصقْرُ في الدُرْماءِ معتقداً
رأى امرئ القيس في عمرو بن درماء
ولستُ أحسب هذا كائناً أبداً
فأنج الورود لنفسي ذاتِ أظماء

- 27 -

إنما الزمان إناءٌ مفعمٌ بالحوادث، مملوءٌ بالعبر
والمواعظ، مُحَجَّبٌ لا ترى ما فيه العيون، ولا تبلغه الظنون،
حتى يزيح ستره، ويبيح سره. وهو متصل الحركة متشابه
الأجزاء، ليس بين ساعاته تباين، ولا بين آنائه اختلاف. فما
أشبهه في ذلك إلا بالقصيدة الجيدة من الشعر قد استقامت
للشاعر قوافيها وانقاد له رويها، فلم يجنح إلى إيطاء، ولم
يُضطرَّ إلى إكفاء. وهو معتدل السير، ليس له استقرار،
وليس يوصف بسرعة ولا ببطء، وليس يملك إنسان رياضته،
ولا يستطيع أحد أن يحمله على أن يمضي حثيثاً أو مترثياً.

ذلك شأن الزمان، وهذه صفاته، كلها لازمة لطبعه، ملائمة لمزاجه؛ ليس لأحد أن يغيّر فيها أو يبدل منها. فأما المكان فأحقّه أن يأنس إليه العاقل ويرغب فيه الحكيم تلك الصحراء المقفرة والبيداء الموحشة، يأنس فيها الدليل في ظلمة الليل إلى القطاة، وفي ضوء النهار إلى لمعان الآل. هذه الفلاة الموحشة الغامرة آنس من المدينة الأهلة العامرة. تلك يخلو فيها الحكيم إلى نفسه مغتبطاً بخيرها مصلاً لشرها، لا يسمع فيها أذاة ولا لغواً، ولا يرى فيها منكرًا ولا عيباً. وهذه يقيم فيها العاقل على أشد النارين، حرّاً، وأعظمهما شراً: فإما أن يشهد مصرع الحق ومقتل الفضيلة، بين يدي الباطل والرذيلة، ويظل معقود اللسان، مضطرب الجنان، رغبة في رضا الجمهور ورهبة من غضبه. وإما أن ينصر الحق المغلوب، ويؤيد الفضيلة المقهورة، فيلقى ما شاء الجهل من أذاة، ويقاسي ما أحب الغي من ألم، دون أن يظفر بحاجة أو يصل إلى غاية.

في هذا الزمان تعيش، وفي هذه المدينة تحيا، ليس لك من هذا بدٌّ. مكان قلقٌ، وزمان نزقٌ، ولكنه صائب الرمية، لا يطيش سهمه، ولا يخطئ نصله.

فإن كان في هذه الحياة ما يسرّ من مواهب تُعلي القدر
وتُبعد الصيت، فما أحسب هذا إلا غروراً بالباطل وافتتانهً
بالزور؛ فإن تلك المواهب عارية مردودة ودينٌ لا بد أن يُقضَى.
ولن يسترد منك هذه العارية، ولا يتقاضى منك هذا الدين إلا
الموت. وحسبك بالموت موقظاً للنائم، ومنها للغافل.

الساعُ أنيةُ الحوادث ما حوتُ

لم يبدُ إلا بعد كشف غطائها

وكأنما هذا الزمانُ قصيدةٌ

ما اضطرَّ شاعرُها إلى إبطائها

ليست لياليه مُجسَّةً كائنٍ

وُصفت بسرعتها ولا إبطائها

والمصرُّ أنسٌ منه خرقٌ مفازةٌ

أنس الدليلُ بقافها مع طائها

وسهامُ دهرِك لا تزالُ مصيبةً

صُرِفَتْ بإذن الله عن إخطائها

إن المواهب كُلهَا عاريَّةٌ
ومن السفاهة غيطةٌ بعطائها

- 28 -

لقد طالما تحدّث الناس وامتلأت كتب التاريخ بما
اختصت به مصر من وباء يغير على أهلها حيناً بعد حين،
ويفتك بهم آنأ بعد آن، حتى أصبحت هذه السمعة لمصر
كأنها طبيعة لا تبرح وصفة لا تزول، ولا يشاركها فيها بلد
آخر من البلاد. خطأ قبيح ووهم فاحش؛ فإنه لم تخل مدينة
من المدن من وباء مغير أو داء فاتك. وأيّ محلة خلت من الموت!
وأي منزل برئ من الردى! وهل تعرف أشد من الموت داء،
وخوف من الردى وباء!

لقد حدثنا العقل وصدّقه التاريخ بأن الموت لنا غاية،
والجَمَام لنا نهاية، لم تسلم منه أمة ولم يأمن منه جيل. يرمي
فلا يخطئ، ويقتل فلا يباء بقتيل، ليس لأحد أن يطلب إليه
ثأراً، ولا أن يقضي منه وثراً. قد اتخذ له مرابئ يرقب منها

صيده، ويرياً منها فريسته؛ فليس يُنجي الفتى من سهمه
إقامة ولا ظعن، وليس يحميه من نصله حلٌّ ولا رحيل.

ما خصَّ مصرأً وبأً وحدها

بل كائنٌ في كل أرض وبأً

أنبأنا اللبُّ بلقياً الردى

فالغوثُ من صحة ذاك النبأ

هل فارسٌ والروم والترك أو

ربيعةٌ أو مُضَرٌّ أو سبأ

ناجيةٌ في عزٍّ أملاكها

أن يُظهِرَ الدهرُ لها ما خبأ

ومن سجايا تبأله أنها

كلُّ قتيلٍ قتلت لم يُبأ

إن سار أو حلَّ الفتى لم يزل

يلحظه المقدارُ بالمرتبأ

الجدَّ الجدَّ في التقوى وإيثار الخير، والحرصَ الحرصَ
على طهارة النية وصفاء القلب؛ فإن التقوى خير ما أحرزته
لنفسك من زاد، وأفضل ما أدخرته لها من بقية.

أوه! كم يملأ قلبي الفزع، وكم يملكه الهلع حين
أذكر الغد، ذلك اليوم الذي نبئونا به وخوفونا إياه، يوم
يتصَّب العرق تصبُّب الماء، ويوم تذوب الأكباد وتبلغ القلوب
الحناجر! لقد أذهل حينما أذكر ذلك اليوم، وأرى ما علق
بنفسي من الشرِّ، وما ران على قلبي من السوء.

لقد يحتاج الثوب تلبسه إلى غاسل يزيل دَنَسَهُ ويردّه نقياً
نظيفاً. ولو أن لقلبي من النقاء والصفاء ما لهذا الثوب الذي
يكدر ويصفو، ويدنس وينظف، لحمدت العاقبة، ولرجوت
حسن المآب.

ما ألدَّ الموت اليسير تتبعه الراحة الباقية! وما أعذب
مذاقه! لقد أوتره على العيش الرضيِّ والبال الهني. ذلك لا

يشوبه كدر ولا يناله تنغيص. وهذا عرضة لما ينبغي أن يحدث
العاقل من خطب الزمان.

لقد بلونا العيش أطواره، وحبينا الدهر أشطره، فلم نيل
إلا مرّاً، ولم نلق إلا شرّاً، ولم نشهد غير الشقاء.

لقد تقدّم آباؤنا وأصدقائنا فسبقونا إلى الموت رائقاً أو
رنقاً. فكم يذيينا الشوق للقائهم، ويملكننا الحرص على
جيرتهم. ولكن هل تصدق الأنبياء وتوفى المواعيد، ويكفل
لنا الموت لقاء الأحياء، وجيرة الأخلاء؟! كم أستلذ الموت
وأستعذبه، وكم أطلبه وأتمناه لو أن لتلك المواعيد من
الصحة حظاً، ومن الصدق نصيباً.

تقواك زاد فاعتقد أنه

أفضل ما أودعته في السقاء

أو غداً من عرق نازل

ومهجة مؤلمة بارتقاء

نوبي محتاج إلى غاسل

وليت قلبي مثله في النقاء

موتٌ يسيرٌ معه راحةٌ
خير من اليسر وطولِ البقاء
وقد بلونا العيش أطواره
فما وجدنا فيه غير الشقاء
تقدمُ الناسُ فيما شوقنا
إلى أتباع الأهل والأصدقاء
ما أطيّب الموتَ لشُرّابه
إن صح للأموال وشكُ التقاء

- 30 -

تبارك الله منفرداً في سلطانه، مستبداً بعظمته
وجبروته، ليس له من عباده كفاء ولا من خلقه شريك، لا
تخفى قدرته ولا تغمض قوته. وكيف تخفى القدرة القاهرة
على ذي حظ من عقل، أو تغرب القوة المسيطرة عن ذي
نصيب من رشاد.

أَيُّ قُسَاةِ الْقُلُوبِ وَجُفَاةِ الطَّبَاعِ! أَيُّ عُمَيِّ الْعَيُونِ وَصُمَّ
الْأَسْمَاعِ! لَقَدْ ظَهَرَتْ لَكُمْ الْآيَةُ بَيِّنَةً، وَقَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةُ
ظَاهِرَةً، وَأَنْتُمْ مَعَ ذَلِكَ تَجَادِلُونَ فِي الْحَقِّ، وَتَسَابِقُونَ إِلَى
الْبَاطِلِ، تَنْتَظِرُونَ بِيَمَانِكُمْ مَا مَنَّتُمْ الْأَسَاطِيرَ مِنْ خَوَارِقِ
الْعَادَةِ وَكُوَاذِبِ الْمَنَى، نَارًا تَظْهَرُ مِنْ كُلِّ أَرْضٍ، وَتَحْشُرُ
النَّاسَ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ. هُنَالِكَ تَوْمِنُونَ وَيَوْمئِذٍ تَصَدِّقُونَ! لَقَدْ
ضَلَّتْ الْأَحْلَامُ وَجَارَتْ الْعُقُولُ، وَكَذَّبْتَ الْأَمَالَ مِنْ اغْتِرَابِهَا
وَتَعَلَّقَ بِأَسْبَابِهَا. أَيُّهَا النَّاسُ مَا تَنْتَظِرُونَ بِيَمَانِكُمْ وَمَا
تَتْرِيصُونَ بِإِصْلَاحِ أَنْفُسِكُمْ!! لَقَدْ أَصْبَحَ الْيَأْسُ مِنْكُمْ حَقًّا،
وَالرَّجَاءُ فِيكُمْ حَقْمًا. وَلَقَدْ أَصْبَحَ لَيْنُ الْأَحْجَارِ وَسَقُوطُ
الْكُوكَبِ وَبَطْلَانُ حَرَكَةِ الْفَلَكَ أَيْسَرَ مِنْ أَنْ يَوْجَدَ فِيكُمْ
الْأَصْفِيَاءُ، أَوْ يَكُونَ مِنْكُمْ أَهْلُ الْخَيْرِ الصَّالِحِينَ.

لَقَدْ فُقِدَ فِيكُمْ الصَّدَقُ، وَطُمَسَتْ بَيْنَكُمْ أَعْلَامُ
الْهُدَى! وَلَقَدْ حُبِّبَ إِلَيْكُمْ الْغَدْرَ وَقَلَّ بَيْنَكُمْ الْوَفَاءُ! وَلَقَدْ
اغْتَذَتْ نَفُوسُكُمْ بِالشَّرِّ وَارْتَوَتْ بِالرَّذِيلَةِ، حَتَّى أَصْبَحَ الْعَاقِلُ
الْحَكِيمَ يَعْتَقِدُ أَنْ لَيْسَ لَهُ مِنْ عِلَّتِهِ بِكُمْ شِفَاءٌ، وَلَا مِنْ
مُصِيبَتِهِ فِيكُمْ بُرءٌ إِلَّا الْمَوْتُ الْمَرِيحُ.

أجل! لم أر ألام منكم طبعاً، ولا أدناً منكم أصلاً،
ولا أدنى منكم إلى المين، ولا أحرص منكم على كفر
النعمة وجحود الصنيعة! أولئك الآباء ينفقون عليكم صفو
حياتهم ونضرة شبابهم، ويبلون فيكم جدّة أيامهم، حتى إذا
أدركهم الهرم وأن لهم أن يتقاضوا منكم دينهم، ويثابوا بما
أحسنوا إليكم من صنيع، جزيتموهم عقوقاً، ولقيتموهم
جحوداً وكفراً. يجدون اعترافهم بكم لذة، وترون
براءتكم منهم نعمة! لساء ما كافأتم الحسنة وشكرتم
المعروف! ولساء ما جزى الدهر أولئك الآباء برحمتهم قسوة،
وبرأفتهم غلظة، وبدلهم من برهم عقوقاً. ولو أنه إذ أنزلهم
منكم هذا المنزل القلق ترك لهم الأخلاء، وأبقى لهم على
الأصفياء، لكان لهم عنكم سلوة، ولكنه يخترم
أصدقاءهم، ويشتفّ أحبّاءهم، كأنما هو يشتفى بذلك من
علة معضلة وداء عيَاء.

إنفرد الله بسلاطانه

فما له في كل حال كفاء

ما خفيت قدرته عنكم

وهل لها عن ذي رشاد خفاء

إن ظهرت نارٌ كما خَبَرُوا
في كل أرضٍ فعلينا العفاء
تهوى الثريّا ويلين الصفا
من قبل أن يوجد أهلُ الصفاء
قد فُقد الصدقُ ومات الهدى
واستُحسن الغدرُ وقلَّ الوفاء
واستشعر العاقلُ في سُقمه
أن الردى مما عناهُ الشُّفاء
واعترف الشيخُ بأبنائه
وكلهم يندُرُ منه انتفاء
ربُّهم بالرِّفقِ حتى إذا
شَبُّوا عنا الوالدَ منهم جفاء
والدهرُ يشتفُ أخلاءَهُ
كأنما ذلك منه اشتفاء

لقد قضى الله على الإنسان أن يقضي حياته تعباً
مكدوداً، ويمضي أيامه معدّباً شقيماً؛ فما يزال به العذاب
والألم حتى يستنقذه منهما الموت ويربّحه من شرّهما الفناء.
إذ ذلك يطمئن بعد القلق، ويسعد بعد التمس. وإذ ذلك
يستحق أن تهنئه بما أفاد من راحة وما انتهى إليه من
سكون. هُنَّه بالراحة والسكون، وهُنَّى أولياءه بالفنى
والثروة من تُراثٍ كسبوه ومال استولوا عليه. ما أجلّ الموت!
فقد ضمن الخير للأموات والأحياء على السواء.

قضى الله أن الأدميَّ مُعدَّبٌ

إلى أن يقول العالمون به قضى

فهنَّى وُلَاة المَيْتِ يوم رحيله

أصابوا تُراثاً واستراح الذي مضى

أيتها المتهيئة للحج العازمة عليه ألقى عن مطيتك
رحلها، وخفضي عنها ثقلها، وأقيمي هادئة مطمئنة؛ فما
أحسب الحج عليك فرضاً، وما أعدّه منك مطلوباً. أقيمي! ما
أرى لك أن ترحلي إلى بلدٍ جمع الله فيه أشرار الناس
وأسكنه أوشابهم وأقلهم عن الأعراضِ زياداً وللأحساب
حمايةً. فسقة لا يعرفون العفة، وأنذال لا يستشعرون الغيرة.
أقيمي! إلى من تحجّين! لقد قام بين يدي هذا البيت الحرام
سدنّته وحجابُه فجرةً مستهترين، سكارى ما يفيقون من
السكر، ولا يفرغون من المجون، لا يرعون لهذا البيت حقاً
ولا يحتفظون له بذمة. وإنما الطواف به والحج إليه تجارة لهم
يربحون منها المال ويفيدون بها القوت؛ فما يباليون إذا ملأت
أيديهم صحاحُ الدراهم وزوائفها أطوفوا بهذا البيت أهله أم
أعداءه. دعي الحج وأمثاله من تلك الأعمال التي يدل
ظاهرها على التمسك، ويشهد باطنها بالتهتك. دعيها وافعلي
الخير خالصاً من كل رياء، بريئاً من كل نفاق. دعيها

وأجيبى دعوة البيرِّ إذا دعاك سرّاً أو جهراً، لا تنتظري على ذلك أجراً ولا تبتغي به ثواباً. أطعمي القانع والمعتّر، وتعهّدي البائس بالمعروف، وخذي نفسك بمكارم الأخلاق ومحاسن الخلال؛ فذلك أنفع لك وأجدى عليك مما لج الناس فيه من باطل وزور.

أجل! إنهم ليلجّون في باطل، ويحرصون على زور. ولو قد كان منهم إصغاءٌ إلى نصح، أو إجابة إلى رشد، أو انتفاعٌ بموعظة، إذا لرأيت كيف أزيل باطلهم عن الحق، وأجلي غيهم عن الرشد، وأمحي ضلالهم عن الهدى. ولكنها قلوب عمياء، وعقول ضعيفة، لا يقومها رشد، ولا ينفعها إصلاح.

ألا لا تثقي بما يدعون إليه! فإنما هي خيل تجري إلى الباطل، وحلبةٌ تستبق إلى الضلال! لقد جرت في باطلها حيناً، واستبقت إلى ضلالها آناً، ولا بُدَّ لجرائها من انقطاع ولاستباقها من غاية، ولقوتها من نفاذ. إنهم ليُجارون قضاءً الله، ولكن هذا القضاء لا يُجارى، وإنهم ليبارون قدره، ولكن هذا القدر لا يبارى.

ألا أيها النجم الشارق والكوكب المتلألئ! ألم يأن لك
أن تهدي إلى سواء السبيل أمماً جائرة قد أخطأت القصد
ولم توفق للهدى؛ فهي في تيه من البيداء عريض، لا تعرف له
وجهاً ولا تنتهي منه إلى مدى، قد بلغ منها الجهد وشفّ
أينقها الإعياء. لقد حرتُ في أمرها وفي أمر أينقها، فما أدري
أيهما أهدى سبيلاً وأقوم طريقاً: النوق أم ركابها!! والإبل أم
أصحابها!!

وقد غلبهم المضلون على أمرهم في الدين والدنيا،
وصرفوهم عن رشدهم في كل شيء؛ فهم مستدلون لدولة
عزّت عليهم واستبدت بهم، يصفونها بالعصمة وينعتونها
بالطهر. وأقسم ما هي بالمعصومة ولا الطاهرة، وما هم عن
ذلك بغافلين.

إنهم ليعلمون من هذه الدولة دخيلتها، ومن أولئك القادة
خببئتهم، وإن نفوسهم لتتحدث بذلك وتطيل فيه، ولكن
ألسنتهم عن النطق معقودة، وأفواههم عن البوح به
مكمومة. وما عقد ألسنتهم ولا كم أفواههم إلا خور العزم
وضعف النفس وكذب الأخلاق.

أقيمي لا أَعُدُّ الحَجَّ فرضاً
على عَجُزِ النساءِ ولا العَذَارَى
ففي بطحاء مكة شرُّ قومٍ
وليسوا بالحُمَاةِ ولا الغِيَارَى
وإنَّ رجالَ شَيْبَةٍ سَادَنِهَا
إذا راحت لكعبتها الجَمَارَا
قيامٌ يدفعون الوفدَ شفْعاً
إلى البيتِ الحرامِ وهم سُكَارَى
إذا أخذوا الزوائفَ أولجُوهم
ولو كانوا اليهودَ أو النصارَى
متى أدالكِ خيرٌ فافعليه
وقولي إن دعائكِ البرُّ آرى
فلو قبل الغُواةِ عرفتِ كَشْفِي
من الكذبِ المموه ما توارَى

ولا تتقي بما صنعوا وصاغوا
فقد جاءت خيولهم تبارى
جرت زماً وتسكنُ بعد حينٍ
وأقضيةُ المهيمن لا تُجارى
لعل قِرانَ هذا النجمِ يثني
إلى طُرق الهدى أمماً حيارى
فقد أودى بهم سَغْبٌ وظمءٌ
وأي نقمهم بمثأفةٍ حسارى
وما أدري أمنٌ فوق المهارى
ألبُ إذا نظرتُ أم المهارى
أتتهم دولةً قهرتُ وعزّتُ
فباتوا في ضاللتها أسارى
وظنوا الطهر متصلاً بقومٍ
وأقسم إنهم غيرُ الطهارى

وما كَرِيتَ عِيونُ الناسِ جمعاً
ولكن في دُجنتِها تَكَارَى
لهم كَلِمٌ تخالف ما أَجْنُوا
صُدورُهم بصِحتِه تَمَارَى

- 33 -

أَجِبْ إلى تقوى الله والإذعان له، لا تعدل به شيئاً ولا
تجعل له ندأً؛ فكل ما سواه باطل لا نصيب له من الحق،
وهالكٌ لا حظ له من الخلود. إنما أنجم العالمُ العلويُّ وإن
عظّمها الناس وهاموا بها لُعبة لا تلبث أن تتكشف عن حطل
الذين فُتِنوا بها ورغبوا فيها. وإنما هذا العالم السفلي وما
فيه من ألوان النبات على اختلافها، وأنواع الحيوان على
تباينها، وأصناف الجماد على افتراقها، صُورٌ ليس لها بقاء،
وظلالٌ ليس لها ثباتٌ. وإنما هذا الإنسان المدلّ بعقله التّيّاه
بشكله، مثال لتلك الأجزاء الفانية التي ضمنها التراب
وواراها الثرى.

ألا فلتزهد في الدنيا ، ولتصرف عنها أملك ، ولتدارها
كما يُداري الإنسان عدواً لا بُدَّ له من جيرته وخصماً لا
مندوحة له عن عشرته. لقد داريتها كل المداراة ، وزهدت
فيها كل الزهد ، فما آبه لصروفها ، وما أحفل بخطوبها ،
وما أُعني بلذاتها. لقد لاينت أهلها كل الملاينة ، ورفقت بهم
كل الرفق ، فما تزدهيني منهم صولة الصائل ، ولا جور
الجائر. لقد نزلت لهم عما يتنافسون فيه ويستبقون إليه من
لذات الحياة؛ فما أحتبس في بيتي حوراء ناعمة ولا حسناء
فاتنة ، ولا أتخذ على مائدتي شهى الطعام ولذيذ المأكّل ،
إنما هي لقيّمات تقيم الأود وتمسك الرّمق إلى حين.

إذا قيل لك اخش الله -ه مولاك فقل آرى
كأن الأنجم السبعة -ة في لعبة بُقارى
خُزامى وأقاحيُّ وصفراء وشُقارى
ومن فوق الثرى يصغُر -ر في أجزاء من وارى
وأصبحتُ مع الدنيا أداريها كمن دارى
إذا بارأها قومٌ فقلبي حُبها بارى

وما يرهبني جَارِي إن ناضل أو جارى
وما عرسي حوراء ولا خُبزي حواري

- 34 -

جدي أيتها الآمال في تضليل العقول وتسفيه الأحلام
واجتهدي في التغرير بالناس منتهزة غفلة الحق عنهم وإبقاء
الموت عليهم. اجتهدي في هذا وجدي في ذلك؛ فقد بلغت الأمر
الذي أردته، وأدركت الغاية التي ابتغيته، واستقاد لك
الناس فسروا في ظلمة الباطل يترسمون خطوك ويتتورون
نارك؛ حتى إذا ما انمحت هذه الظلم وأدبر ذلك الليل وبدا
صباح الحق أبلج وضاحاً، حمدوا السرى واطمأنوا إلى غاية
ليس بينها وبين ما كانوا يؤمنون إلا ما بين الموت والحياة من
الاختلاف.

إيه يا بني آدم! ما أطول آمالكم وأقصر آجالكم! ما
أشد طعمكم وأقل نُجْحكم! إنكم لتطلبون الثروة من
نجوم السماء وعضون الأرض، وإنكم لتسلكون إليها

مختلف الطرق وتذهبوا فيها شتى المذاهب، ثم لا يؤوبون إلا باليأس والقنوط. قَدْ كُمْ من هذا الجهل فإنه ضائع. قَطُّكُمْ من هذا الجِدِّ فإنه لغوٌ. ذلك زارع يقلب الأرض ليستخرج أثمارها، وهذا دارع يغير بقوته على الحصون والقلاع. والسعيُّ من الرجلين ضائع، والحظُّ الأعمى فيهما متحكّم. فربما عاد الدارع ذليلاً بعد العزة، وآب الزارع فقيراً بعد الثروة. وحكم الحظِّ فأمضى. حكم لهذا حبات من الشعير يُقْمَنُ أَوْدَهُ، ولذلك شَذَرَات من تبر الأرض وورقها يقضين حاجه ويفضلن عليه.

أَشَدُّ أَيُّهَا الْجَاهِدُ فِي طَلْبِ الثَّرْوَةِ رَحْلُكَ عَلَى مَا شئتَ من عَنَسٍ طَوِيلَةٍ الْمُطَا شَدِيدَةِ الْقُوَى، أَوْضَعُ سِرْجَكَ عَلَى مَا أَحْبَبْتَ مِنْ طِرْفِ أَيْدٍ شَدِيدِ الْقَرَا، ثُمَّ أَجْهَدْ نَاقَتَكَ فِي الْأَسْفَارِ وَفِرْسِكَ فِي الْإِغَارَاتِ وَعَدَّ بِهِمَا كَلِيلَتَيْنِ قَدْ أَضْنَاهُمَا الْجِدُّ وَأَكْلَهُمَا الْحَدُّ وَقَدْ سَالَ عَلَيْهِمَا مِنْ عَرَقِهِمَا مِثْلَ الظَّلْمَةِ السَّحْمَاءِ، وَرَسَمَ عَلَى جَسْمَيْهِمَا بُصَاقَ الدَّبْيِ أَمْثَالَ الْبُرِّ فِي الْأَنْوَفِ، لَا تَسْتَطِيعَانِ حَرَكَةَ وَلَا تَعْطِيَانِ نَائِلًا، قَدْ ذَهَبَ الْأَيْنُ بِحَدِّهِمَا وَجَدَّهُمَا، وَقَدْ ذَهَبَ بِمَا فِيكَ

من قوة، ومحا ما فيك من نشاط. افعل ما شئت من ذلك فلن
تعود إلا بالخيبة، ولن ترجع إلا بالإخفاق.

لمن أنصح وبمن أهيّب وعلى من ألوم!! لن ينفع النصح
ولن يجدي الزجر ولن يفيد اللوم. غريزة في الناس ثابتة،
وطبيعة عليهم حاكمة. فطروا على حب الدنيا، وورثوا عن
آبائهم الغلو فيه. لا تعدل أخاك في هذا العشق، ولا تلمه على
هذا الحب؛ فكلكما فيه سواء، ورثتماه عن آبائكما
وورثتماه أبناءكما. إنما أنتما فيه أشبه بالذئاب خبثاً وسوء
نية، منكما بالأسود شجاعة وصدق إقدام. والدنيا خادعة
ماكرة، ومحتالة ماهرة، تدبّ ديب الشيخ وتدرج درج
الطفل حذرة مستأنية، حتى إذا لمحت مطمعاً أو توسمت
فريسة، فدع مهارة السليك وتفوق الشنفرى في الكرّ والفر،
وفي الاختلاس والنذل، وفي سوء الخلق وفساد الضمير.

لقد علمتكم فأحسنتم تعليمكم وغدّتكم فأحسنتم
غذاءكم؛ فليس فيكم من هو من الشر بريّ، ومن دنس
الرديلة نقي، سواء في الشر والرديلة أهل السهل والجبل،
وسكان الوهاد والدّرا، لا يردّهم عنه رادّ، ولا يردعهم عنه
رادع.

ألا لو أنصف الحكيم نفسه لطلب الصمت وسكن
إليه، ولافتن فيه افتتان الجاهل المغرور في النطق بما في
الحياة من زخرف وما في العالم من أسماء.

إيه أيتها العقول الضالة! ضعي ما شئت من الأسماء،
فلن تجدي عليك شيئاً. سموا الخمر أم ليلي، وسموا مكة أم
القرى، فما أنتم في ذلك إلا كاذبون. ما أرى الخمر ولدت
ليلى، وما أعرف مكة ولدت القرى! سمو هذا النجم الطالع
في السماء بالمشترى فما أنتم في ذلك إلا مختلفون! فهل
تتبئوني ماذا اشترى هذا النجم وماذا باع!.

كلا! إن هي إلا أسماء سميتها أنتم وآباؤكم، لا
تعلمون لها مصدراً ولا تريدون بها غاية.

انتظروا الريح فلن تربحوا إلا الخسران. وأملوا الظفر
فلن تظفروا إلا بالخيبة. انخدعوا بالأسماء فإن ضعف
عقولكم لم يُعِدْكُمْ إلا لذلك ولم يهيئكم إلا له.

عذيري من هذا المارد الغالي في مروده، والفاجر المغرق
في فجوره، يتقرأ ويدعي النسك، ويتزهّد وينتحل الدين، وما
أراه إلا متتبعا للمخزيات، متطلبا للآثام، مستتبطا للكفر
والنفاق.

ألا أيها الحكيم الحازم اربأ بنفسك أن تحب هذه الحياة فما فيها خير، أو تحرص على عشرة أهلها فما يرجى لهم صلاح. هوّن على نفسك لقاء الموت؛ فإن خشونته وغلظته ألين مساً من نعومة الحياة ورقتها. ووطنها عليه وهيئها له؛ فإنما أنت سالك سبيل أمثالك الذين مضوا، وتابع نهج أقرانك الذين درجوا. كم خبرك التاريخ عن قيلٍ دانت له العروش وانقادت له المنابر، ثم أسلمته عزته وقوته إلى التراب فخالطه وفنى فيه! مضى لم ينفعه ملكه، ولم يتبعه سلطانه، بل أقام في ظلمة قبره عارياً من كل شيء، أعزل من كل سلاح، وخلف دولته الضخمة وعزته القعساء بالعراء.

ارغب في الموت وابتدره بفعل الخير، وليكن حظك من هذه الحياة الإحسان إلى أهلها والتطول عليهم. إقر ضيفهم إن نزل بك. إقره بأول ما تلقاه، لا تتربص به ما ليس عندك، ولا تُكبره على ما في يدك. لا تزدر شيئاً من القوت؛ فربّ مزدرٍ نفع، ورب محتقر أفاد. إن في هذا القوت الذي تمقته وتُصغره أن تقدّمه إلى ضيفك لبلاغاً لهذا الضيف من جوع ربما مزق أحشاءه، وتعلّة له عن ألم ربما لم يُطق له حملاً.

وأين تقع العُرا والأزرار مما أُوتيت البُزُل من قوة وما مُنحت من أيدي! ولكنها مع ذلك محتاجة إليها لا تستطيع أن تُقلّ حملاً ولا أن ترفع ثِقلاً إلا بها. وليس يُحتقَر الشيء لضعفه مكانه ولا يعظّم لارتفاع قدره، ينبغي أن يقدر ذلك بمكانه من حاجة الناس إليه، وتوقف مصالحهم عليه.

أجل! لقد بالغنا في حب الدنيا وإكبارها حتى أطمعناها في أنفسنا، فشزرتنا محتقرة لنا، ونظرتنا زارية علينا، وهي أحق أن تُحقّر وأجدر أن تُزدري؛ فليس فيها شيء يحسن بالعاقل حرص عليه أو رغبة فيه. لذاتها نائية، وآلامها دانية، خيرها قليل وشرّها كثير، والسعادة فيها غير باقية، والشقاء بها لا يزول. أوليس أجمل الأشياء فيها عصر الشباب الذي يحمل إلينا من اللذات ألواناً ومن النعمة فنوناً! فكيف ترى ثباته لنضالها وبقاءه أمام نبالها! أوليست تتخذه غرضاً فلا تزال بجذته حتى تبلى وينضرتة حتى تذوى، وبجماله حتى يزول!

نحب الحياة ونكره الموت. وما أعرف لشيء من ذلك سبباً. لقد عرفنا شر الحياة وضرّها، وأرى أنا لا نكره الموت إلا لجهلنا إياه وغفلتنا عنه، وأننا لم نذق طعمه ولم

نبيلُ ثمره! بلي! لقد ذقناه فما أذبه! وبلوناه، فما أحلى جناه!
وأي فرق بين الموت والنوم إلا قصر هذا وطول ذاك! وأي
خلاف بين رقدة القبر ورقدة السرير، إلا أن هذه راحة مؤقتة
تسخها آلام اليقظة، وتلك راحة خالدة لا ينسخها شقاء
الحياة.

ألا إلى الله الملجأ وعليه المعتمد؛ فإننا لم نُجمَع في هذه
الدار، ولم نُحشَرَ إلى هذه الأرض إلا لنشرب كأس الموت
كدرية أو صافية لا بد منها ولا منصرف عنها. نشربها
راغمين فنجد لها مذاقاً واحداً لا يغيره اختلاف المادة ولا
يبدله تبدل الأجزاء: فلان قتله المرض، وفلان قتله السيف،
وفلان أصابه الرمح، وآخر أصماه الهم؛ كلُّ قد انتهت به
الحياة إلى مورد واحد لا اختلاف له ولا تفاضل فيه.

نشربها راغمين وإن لم نحمد أثرها. فناء تام، وسكون
خالد، وذهول عن العالم مقيم. ردُّ حوض الموت مطمئناً،
واحتمس كأسه مستريحاً؛ فلن يؤلمك بعد ذلك ذم الناس لك،
ولن يرضيك ثناؤهم عليك. وأنى لهم أن يؤلموك أو يرضوك
وقد فصمت بينك وبينهم العُرا، وتقطعت بينك وبينهم
الأسباب!!

أقدم، ولا يهولتك ما تسمع من أخبار الغيب وأنبيائه؛
فإنما هي ظنون مرجمة، وأحاديث منحولة، لم تنتقل إليك
عن ثقة، ولم تبلغك عن يقين. هل أنبأك ميت بما بعد الموت؟
وهل قص عليك ما لقي في قبره من سعادة أو شقاء ومن نعيم
أو جحيم؟ كلا! لو أنه قام من جدته وهب من مرقده
فأنبأنا بما رأى وحدثنا بما سمع، لاختلف ظن الناس به
ورأيهم فيه، ولكان منهم المصدق له والناعي عليه. طبيعة
تلك في الناس لا تزول، يؤثرون الباطل فيجمعون عليه،
ويحقرون الحق فيختلفون فيه.

أجل! إنا لم نجمع إلا لترد هذا المورد، كما أن راعي
الإبل لم يوردها الحوض ولم يعرضها عليه إلا لتشرب منه
وترتوي من مائه.

أقدم على الموت، فليس لك عنه مفر ولا منه معتصم.
وأنت لهذا الغرّ الفتى قد اشتد به المرح و عظم فيه الحرص
على الحياة، أن ينجو من سهم أرسله إليه القدر وأتاحه له
القضاء!

لا تخدمك الآمال، ولا تفرنك المنى، ولا يملكك حب
الحياة؛ فإنما هي آمال منقطعة بك، وأمانى مسلمة لك إلى

الحمام. وأنى يُتاح للثور الهرم قد أفنته السن وتصرّمت عنه
الأيام، أن يعيش عيشة الفرّ النشيط ذي الشباب والقوة وذي
الحدة والفتوة!

ما أكثر تعرّض عقل الإنسان للزلل، واستهداف رأيه
للخطل! فقد يخدعه السراب، فيخيّل إليه الشراب، وقد
يسحره قطر السحاب، فيخيّل إليه الدرّ ذا البريق والصفاء
وذا الرونق والآلاء. كذلك يفعل الضعف بنفس الإنسان،
يسقيها المنى عذبة، ويُرِيها الآمال محققة، حتى إذا جاء وقت
اليقظة والانتباه والحرص على اجتناء الأثمار لكد الليل
وكدح النهار، لم يظفر إلا بألم اليأس، ولم ينل إلا مرارة
القنوط.

كم تمتلئ نفسك ابتهاجاً! وكم يفعم قلبك سروراً
حين تصوغ لك الآمال طيف الخيال، وفيه من حبيبتك ما
أحببت من دلّ فاتن، وجمال ساحر، ومن لطف خلّاب،
وحسن جذّاب! وكم يؤلمك وخز اليأس حين تباعد اليقظة
بينك وبين هذا الخيال؛ فما تفيق من نومك إلا وقد استيقنت
بأنك قد كنت في باطل ليس له من الحق نصيب! ذلك هو
نصيبك من الدنيا؛ فإن شئت فازهد فيه، وإن شئت فاحرص

عليه. ولكنني أنصح لك ألا تتخذ سبيل الجاهل الذي لا يفرّق بين نفعه وضره، ولا يميز خيره من شره، ذلك الذي يصرف سيفه عن عدوه ليُعَمدَه في رأس أحب الناس إليه وأولاهم بالمنزلة عنده، وهي ابنته التي هي جزء من نفسه وقطعة من قلبه. هذا الجاهل الغافل يغتر بالحياة فيرغب فيها، ويعتقد أن حرصه عليها سيعصمه من فراقها، وإنما هو في رأيه مضلل مغرور.

ما أشدّ ما أشهد بين الناس من الاختلاف في طرق الحياة، والافتراق في سبل العيش!.. هذا يبيع، وهذا يشتري، وتلك تغني وهذه تنوح، وذلك يهوي إلى أعماق الأرض ليمتص الماء من جوف القليب، وصاحبه يصعد في أجواز الجو ليشتار العسل من رؤوس الجبال أشد ما يكون على نفسه حذراً من السقوط، وأحرص ما يكون لها رغبة في النجاح. والكل ينتهون من مساعيهم المختلفة ومسالكهم المتشعبة إلى غاية واحدة، هي الموت الذي لا منصرف عنه ولا شك فيه. ألا إننا زائلون كما زال مَنْ قبلنا، فمُقْضُونَ على آثارهم، ومورثون الأرض لمن بعدنا.

والزمان على حاله: نهار يمر بضوئه، وليل يكرّ
بظلمته، ونجم يطلع، وآخر يهوى مغوراً. وبذلك سبق القدر،
وعلى هذا استقر القضاء.

سَرَيْنَا وَطَالِبُنَا هَاجِعٌ

وعند الصباح حَمِدْنَا السُّرَى

بنو آدم يطلبون الثرى

عند الثرى وعند الثرى

فتى زارعٌ وفتى دارعٌ

كلا الرجلين غداً فامترى

فهذا بعينٍ وزاي يروح

وذلك يئوب بضارٍ ورا

وعامل قوت ذرا حبه

وخذن ركاٍ ضحا فادرى

وكورك فوق طویل المطا

وسرّجك فوق شديد القرا

ويُجْرِي دَفَارِيَّهَا جِدُّهَا
بِمَثَلِ الظَّلَامِ إِذَا مَا جَرَى
كَأَنَّ بُصَاقَ الدَّبِّيِّ فَوْقَهَا
إِذَا وَقَدْتَ فِي الْأَنْوُفِ الْبُرَا
وَذَلِكَ مِنْ حَرِّ أَنْفَاسِهَا
يُضَاعَفُ حَرُّ يَوْمِ جَرَى
تَلُومِ عَلَيَّ أُمَّ دَفْرِ أَخَاكَ
وَرَاءَكَ إِنَّ هُوَ قَدْ وَرَى
عَهْدُكَ تُشَبِّهُ سَيِّدَ الضَّرَاءِ
وَلَسْتَ مُشَابِهَ لَيْثِ الشُّرَى
تَدْرِبَ فَإِنْ وُجِدَتْ خُلسَةً
فِيَا لَيْسُ لِيكَ أَوْ الشُّنْفَرَى
هُوَ الشَّرْقُ قَدْ عَمَّ فِي الْعَالَمِينَ
أَهْلَ الْوَهْودِ وَأَهْلَ الذَّرَا

لِيَفْتَنَنَّ فِي صَمْتِهِ نَاسَكَ
إِذَا افْتَنَّ فِيمَا يَقُولُ الْوَرَى
فَكُنُّوا صَبُوحِيَّةَ الشَّرْبِ أُمَّ
لِيَلْسَى وَمَكَّةَ أُمَّ الْقَرَى
وَقَالُوا بَدَا الْمُشْتَرِي فِي الظَّلَامِ
فِيَا لَيْتَ شَعْرِي مَاذَا اشْتَرَى
وَتَرَجُّو الرِّيحَ وَأَيْنَ الرِّيحِ
وَنَعْتُكَ فِي نَفْسِكَ الْخَيْسَرَى
عَازِرِي مَنْ مَارِدٍ فَاجِرِ
تَقَرُّوا وَالْمَخْزِيَاتِ اقْتَرَى
فَهُوَنَّ عَلَيْكَ لِقَاءَ الْمَنُونِ
وَقُلْ حِينَ تُطَرِّقُ أَطَرِّقُ كَرَا
وَنَادِ إِذَا أَوْعَدْتِكَ اعْتَرَى
فَصَبِرًا عَلَى الْحُكْمِ مَا اعْتَرَى

ونفسي ترجي كإحدى النفوس
وئذري النوائب سكن الدري
وكم نزل القيل عن منبر
فعاد إلى عنبر في الثرى
وأخرج عن ملكه عارياً
وخلّف مملكة بالعرا
إذا الضيفُ جاءك فابسم له
وقرب إليه وشيك القرى
ولا تحقر المزدري في العيون
فكم نفع الهين المزدري
ولا تحمل البزل تلك الوسو
ق إلا بأزارها والعرا
أجل خزرتي وتأبئة
سواها التي مشيت الخيزري

فإن سَراء الليالي رَمَى
أوَانَ شَبِيتنا فانسَـرا
ونوميَ موتٌ قَريب النشورِ
وموتيَ نومٌ طویل الكَـرى
نؤمُّـل خالقنا إننا
صُـرینا لنشرب ذاك الصُّـرى
سواء عليّ إذا ما هلكتُ
مَن شاد مكرمتي أوزرى
فأودی فلانٌ بسُقمٍ أضـرُّ
وأودی فلانٌ بعرقٍ ضـرا
أبالتُّبـلِ أدركَ أم بالرمِّـما
ح بين أسـنَّتْها والسُّـرا
فهـل قامَ جَدثٌ مِيتٌ
فيُخبر عن مَسْمَعٍ أو مَـرا

ولو هبَّ صدَّقه معشرٌ
وقال أناسٌ طغى وافتري
ولم يقرِّ في الحوض راعي السوا
م إلا ليورده ما قرى
أفرُّ وما فرُّ نافرٌ
بمعتصم من قضاء فرى
أجنَّ إلى أمـلٍ فاتني
وما للشُّبوب وعيش الفرَّ
متى قرقر الهاتفُ العكرميَّ
هيج شوقاً إلى قرقرى
وقد يفسُد الفكرُ في حالتهِ
فيوهمك الدرُّ قطرَ السُّرا
سقاك المنى فتمنيتها
وصاغ لك الطيفَ حتى انبرى

فلا تدنُ من جاهلٍ أهلٍ
لو انثُرعتُ خَمْسُهُ ما درى
أبى سيفهُ قتلُ أعدائِهِ
وسافٍ وليدَتُهُ أو هـرى
وتختلفُ الإنسُ في شأنها
وأبُعدُ بمن باع ممن شرى
مُغْنِيَةٌ أُعطيَت مُرغِباً
فغَنَّتْ ونائِحَةً تُكْتَرى
وهاوٍ ليُخرج ماء القلبِ
وراقٍ ليَجَنِّى نُؤلاً أرى
فإن نال شهداً فأيسرُ به
على أنه بسقوطِ حارى
نُزولُ كما زال أجدادنا
ويبقى الزمانُ على ما ترى

نهاراً يُضيءُ وليلٌ يُجىءُ
ونجمٌ يَنورُ ونجمٌ يُرى

- 35 -

حياة تُعنيننا آلامها، وموت يعذبنا خوفه. فليت ما يؤذينا
مضى، وليت ما يخيفنا وقع!.

ماذا أحمد من الحياة! وإنما هي أمل يثمر اليأس،
ورجاء يغلّ القنوط. نفس متمنية للسعادة، وعين رانية إلى
النعيم، ويد قد أصفرها الفقر وأخلاها الشقاء، ولهة قد
أجفّها الظمأ وأذواها الصدى.

لشد ما أشهد في هذه الحياة من تلون! ولشد ما أرى
فيها من خداع. أناس يحبون الخير ويرغبون فيهن فإذا حققت
أمورهم وتبينت أسرارهم، رأيت أن حبهم للخير وحرصهم
عليه ليس إلا تجارة كاسدة يبتغون بها الذكر الطائر
والشهرة الكاذبة والصيت البعيد. أوقدُ أيها الموقد نيرانك في
جوف الليل، وارفع سناها على رؤوس الجبال وشعابها؛ فقد

علمت أنك لم تُردِّ بذلك وجه الله ولا فعل الخير، وإنما أحببت أن يشيع حمد الناس لك وتثاؤهم عليك.

حقَّق أيها الباحث نظرك في الأمور، وأجدُ بحثك عنها واستقصاءك لها، تجد أن غاية ما ينال المرء من حياته إنما هو ثوب يستر جسمه، وقوت يقيم أوده، وراحة تدفع عنه الأسقام والأمراض. لقد كثر الثمن وخسرت الصفقة، وبذلنا هذا الجهد العظيم ثمناً لهذا الحظ القليل من الحياة.

ما أجمل الموت وما أَلذّه! وما أكفله للراحة وأنفاه للتعب! يسكن أحدنا القبر فلا يحفل بما أفاد من ثروة وما اقتنى من طرائف. يعود تراباً لا يلدُّ له مس الحرير ولا يؤذيه طعن القنا، ولا يؤلمه ما نال من موت زُعاف قد حمله إليه صارم صايف في الفرند ماضي الحد مرّ المذاق. لا يزدهيه الغضب ولا تأخذه العزة إن ذمة الناس أو مدحوه، سواء عليه سيء ذلك وحسنه وقبيحه وجيِّده.

ألا من كانت قد أعجبتَه الحياة فإني قد أعجبتني الموت! ألا إن من نال الخير خليق أن يهنأ به ويغبط عليه، ولكني لا أرى الحياة خيراً ولا أعتدّها نعمة.

لقد كثرت مذاهب الناس في مصدر ما اشتملت عليه الحياة من شر: فمنهم من حمد المادة وأنكر الروح، ومنهم من ذم المادة وجعلها مصدر الشرور وعلّة الآثام، وزعم الروح بريئاً من كل عيب خالصاً من كل سوء، والجسم مصدر آلامه وعلّة شقائه. وما أرى هذه الطائفة من الناس إلا غالية مغرقة. ماذا فعل الجسم المسكين؟ وماذا جنى؟! لقد كلفه الروح مشاق الأعمال وأنواع الآلام فاحتملها طائعاً وقام بها مدعناً حتى أدركه البلى وأصابه الفناء. أجل! لقد كلفه الروح من أعاجيبه ما يفوق الطاقة ويتجاوز الحد، فما عصى أمراً ولا استهان بنداء. أفان أبلّته الخدمة وأفتته الطاعة يكون نصيبه الذم والعيب؟!

ولقد أخطؤوا في ذمهم للجسم وكذبوا في عيبهم عليه؛ فما رأينا الجسم في نفسه إلا مصدراً للخير وسبباً للنعمة. وما رأينا الشر والشقاء والغى والفساد إلا تابعة للحياة يصحبها الروح. دونك الغصن الذي هو جسم صرف ليس له من العقل والروح نصيب، ودونك الإنسان العاقل المفكر، فانظر أيهما إلى الخير أدنى وإلى الفائدة أقرب، تجد الغصن قد أعطى

النعيم واللذة وأجنى الفواكه والأثمار، والإنسان قد أوجد
الجحيم والشقاء وجنى الآثام والشرور.

لقد برئ الجسم الخالص من المين والتكلف ومن
الكذب والزور، فما تبرأ مما هو فيه، ولا حرص على
الرجوع إلى ما فاتته، ولا ذاق كذب الآمال ولا جرب ضلال
المنى. أنظر إلى الإنسان ذي العقل والفكر كيف ضلّ عقله
وصغر فكره! فكّر في الشيب وقد أصابه، وأحب الشباب
وقد فاتته، فظن أن الخضاب يدفع عنه ما أتى، ويرد عليه ما
فات، ونسي أن تغير اللون واستحالته لا يدفعان عنه ما دهمه
الشيب به من انحناء الظهر وانشاء المتن.

أنظر إليه كيف خدعته الأوضاع المختلفة والأصول
المنتحلة، فحكّمها في نفسه وسلّطها على عمله، مع أنه هو
الذي اخترعها ولم تكن موجودة، وانتحلها ولم تكن
معروفة، واتخذ منها لنفسه قيوداً وأغلالاً تعوقه على الخير،
وتثنيه عن الكمال. جعل في الناس أحراراً وعبيداً، وفرّق
بين ابن الحرية وابن الأمة في الحكم وباعد بينهما في نظر
العقل. وما أرى بينهما فرقاً، كلاهما إنسان يأكل الطعام
ويمشي في الأسواق. فرّق بين المحصنة والزانية، وأخذ ما

بينهما بحكمهما، فأخذ ابن الزانية بجناية أمه، وربما كان خيراً فاضلاً. ومدح ابن المحصنة بطهارة أمه، وربما كان شريراً آثماً. ما أضلَّ عقله وأسفَه رأيه وأجدره أن يتخلص من هذه الأغلال!

أنظر إليه بطراً أشيراً يحب الحياة ويرغب فيها، حتى إذا طالت له أنفقتها في الزور والخنا، وأمضاها في الإثم والفجور. أنظر إليه كيف نسي نصيبه من الموت حين حُجب عنه وخفي عليه، فظن أنه خالد لن يموت وأنه لا يفنى، حتى إذا ظهر خطؤه وبانَ خطله تقطع قلبه حزناً لفراق الحياة، وتفرقت نفسه فزعاً من لقاء الموت. ولو قد كان متبصراً في الأمور مستقصياً لعواقبها لكان بنجوة من هذا الفزع وذلك الحزن. أنظر إليه كيف أصم أذنيه عن هذا الصوت المرين، وكيف أعمى عينيه عما يقدم الدهر إليه من آيات بينة وحجج ناصعة، تظهر له غروره واضحاً، وفتونه جلياً.

أنظر إليه كيف خدعته أوهام الأقدمين وأضلته أساطير الأولين، واتخذ لنفسه شرائع مكتوبة وطقوساً من العبادة ظاهرة، يزعم أنها تدخله الجنة وتعصمه من النار. لقد فزت أيها الشقي التعس إن صدقتك هذه الأوهام

وصحّت لك هذه الوعود. فزت بالجنة ونعيمها ، وبرئت من
النار وجحيمها ، بزيارتك لتلك الأحجار القائمة والأبنية الماثلة
بمكة ومينى.

حياةُ عناءٍ وموتٌ عَنَّا
فليت بَعِيدَ حَمَامِ دَنَا
يَدٌ صَفَرَتْ وَلِهَاءُ ذَوْتِ
وَنَفْسٌ تَمُنَّتْ وَطَرْفُ رَنَا
وَمُوقِدٌ نِيرَانُهُ فِي الدَجَى
يَرُومُ سِنَاءً بَرَفَعِ السُّنَى
يَحَاوِلُ مِنْ عَاشِ سَثْرَ القَمِيصِ
وَمَلَأَ الخَمِيصَ وَبُرَّءَ الضَّنَى
وَمَنْ ضَمَّهُ جَدْتُ لَمْ يُيَلْ
عَلَى مَا أَفَادَ وَلَا مَا اقْتَسَى
يَصِيرُ تَرَاباً سَوَاءً عَلَيْهِ
مَسُّ الحَرِيرِ وَطَعْنُ القَنَا

وشُربُ الفناء بخُضِرِ الفِرندِ
ألقَبُه ذاكراً أم كُنَا
يُهتأ بالخير مَنْ ناله
وليس الهناء على ما هُنَا
وأقربُ لمن كان في غبطةٍ
بلقياً المنى من لقاء المنَا
أعائبهُ جسدي وروحهُ
وما زال يخدمُ حتى ونى
وقد كلفته أعاجيبهُ
فطوراً فُرادى وطوراً تُنَا
يُنَا في ابن آدم حالَ الغصونِ
فهاتيكِ أجنّتْ وهذا جنى
تُغيّرُ حنّاً وه شيبه
فهل غيرَ الظهرِ لما انحنى

إذا هو لم يُخنِ دهرٌ عليه
وجاء الفَريُّ وقال الخنا
وسَيَّانٍ مَن أُمُّه حُرَّةٌ
حَصَّانٌ ومِن أُمِّه فَرَّتْني
ولي مَورِدٌ بإناءِ المنونِ
ولكنَّ مِقاتَه ما أنى
زمانٌ يخاطبُ أبناءه
جهاراً وقد جهلوا ما عني
بيدٌ باليسرِ إعدامَه
وتهدمُ أحداً مَنه ما بنى
لقد فزتَ إن كنتَ تُعطى الجنا
نَ بمكة إذ زرتها أو مِنى

بِعلمِ اللَّهِ وقضائِهِ خُلِقْتُ والضعفُ لي طبيعة والعجزُ في
غريزة، لا أستطيعُ غدوًّا ولا رواحاً، ولا أقدرُ على سُرى ولا
إدلاج.

لقد أصبحتُ في يده أسيراً بائساً وذليلاً ضارعاً، أحوج
ما أكون إلى فضل من عفوه، ونافلة من كرمه.

وليس يصح في قضية العقل أن أقضي أيامي في هذه
الحياة مؤثقاً مكتوفاً، لا أملكُ لنفسي نفعاً ولا أدفعُ عنها
ضراً، ثم أُكَلِّفُ العمل في الطاعة والجد في العبادة، حتى
إذا لم آتِ ما أنا عاجز عنه قيل لتَدْخُلِ النار كما دخل
غيرك من العصاة المفسدين والطغاة المجرمين، وإن بيني
وبينهم لفرقٌ ما بين العاجز والقادر أو القوي والضعيف.

لئن زعم الناس أن لهم قوة وقدرة، وأن لهم بأساً
وبطشاً، وأنهم قادرون على ما كُفِّفُوا ما الكون لما تُدبوا
إليه، ما أعرف إلا أنني عاجز ضعيف، قد برئت من الحول

والطول، وعجزت عن الدقيق والجليل. ولئن وقف الناس
أنفهم موقف اليأس والقنوط، فاستيقنوا بسوء العاقبة حين
اعتقدوا في أنفسهم القوة، إني لكبير الأمل عظيم الرجاء،
أنتظر أن ينالني عضو الله عن ضعيف عاجز فيأمر بي إلى
جنته حيث ينعم الأبرار من أصفياؤه. ذلك رجاء أرجوه وأمنيّة
أبتغيها. وما أراني إن ظفرت بها إلا الموفق السعيد.

بِعلمِ إلهي يُوجدُ الضَّعْفُ شِيمتي

فَلستُ مطيقاً للغدوّ ولا المَسْرَى

غَبَرْتُ أسيراً في يده ومن يكن

له كرمٌ تُكْرَمُ بساحته الأَسْرَى

أُصبح في الدنيا كما هو عالمٌ

وأدخل ناراً مثل قيصر أو كسرى

وإني لأرجو منه يوم تجاوز

فيأمر بي ذات اليمين إلى اليسرى

إذا راكبٌ نالت به الشأو ناقةً

فما أيتقي إلا الظوالعُ والحَسْرَى

وإن أُعْفَ بعد الموت مما يَريبني
فما حَظِّي الأَدنى ولا يدي الخُسْرى

- 37 -

لا تحقر الموت ولا تزهد فيه، ولكن أكبره واسع إليه؛
فإنه خليق أن يكون مطعماً للنفس الكبيرة والقلب المطمئن.
وأي دليل على شرفه وفضله أوضح من صعوبة الطريق إليه!
فإننا إنما نسلك إليه هذه الحياة محتملين أهوالها متجشمين
خطوبه متجرعين غصصها، ابتغاء راحته الدائمة ودعته
الخالدة؛ فهو كالمجد المؤئل لا يُنال إلا بالجهد والمشقة.
أجل! إن الموت لراحة، وإن الحياة لتعب، وإن في افتراق
الأجزاء بعد الموت لتخفيفاً من ثقل شديد، كما أن في
التألمها بالحياة تحملاً لعبء عظيم.
أنظر إلى هذا الراعي المكدود، ما ينفك عاملاً
مجتهداً في حياته، حتى إذا مات سكنت حركته واطمأن

جسمة وارتاح بعد العناء. وما أحسبه لو خيّر بين الموت
والحياة وقد ذاق أولهما إلا مؤثراً للجمام ومختاراً للفضاء.

يدلّ على فضل الممات وكونه

إراحة جسم أن مسلكه صعب

ألم تر أن المجد تلقاك دونه

شدائد من أمثالها وجب الرعب

إذا افتרכת أجزاءنا حطّ ثقلنا

ونحمل عبئاً حين يلتئم الشعب

وأمسّ ثوى راعيك وهو مؤدّع

ولو كان حياً قام في يده قعب

- 38 -

فيم تعيب الناس وتتبع زلاتهم! وعلام تؤنب الصديق
وتكثر الإساءة إليه! وماذا جنى عليك الدهر فأنكرته، أو
قدّمت لك الأيام من الشر فأنت لها كاره وعليها عاتب! لقد

كنت خليقاً أن تُشغَل بما أصبحت منتظراً له من موت واقع،
ليس له من دافع، عن تتبع العيوب وتأنيب الأصدقاء. ولقد
كنت حجيّاً أن تعرف نفسك وتعترف بسيئاتها، لا أن تجهلها
وتحمل جناياتها على الزمان وآثامها على الأيام! ما أذنب
الدهر ولا جنت الأيام، وإنما نحن المذنبون الجانون.

أنظر إلى هذا الظالم قد غرّه سلطانه وأطغاه بطشه،
فظن بنفسه الخلود واستبعد عليها الموت، وإن الموت لمدرکه
أين كان ولو اتخذ نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء. أحبّ
الظلم ورجب فيه، وطلب العسف وتهالك عليه، فما ينفك
فيه جاداً وعليه حريصاً. لقد بُدِّل برقة العواطف وقسوة
القلب غلظة الكيد وجفاء الطبع، حتى استبدل بما يعشقه
الناس من الغواني الحسان أدوات الموت وآلات الفناء. إنه ليرى
في القناة اللدنة السمراء وفي سنانها المخضوب بالدماء،
حسناً فاتتة يضم إليه قدها المياس ويلثم ثغرها الشنّب. وإنه
ليرى في السيف قد صفا رونقه وخلص جوهره وتاللاً الفرند
فيه جدولاً من الماء نقيّ الصفحة، ولكنه ينم عن صورة
الموت، فلا يكاد يصبّ منه على رأس القرن قطرات حتى
ينبسط منه جدول من الدم المزيد العبيط. إنه ليهوى الحرب

ويكلف بها ويراهها هئدَه وزينيه. وإنه ليقطع إليها المهامه
ويتجشَّم البيد ويمتطي الأيد من الخيل والنوق، والناس من
حوله وادعون مطمئنون. إنه ليفعل ذلك كله فيزعج الأمن
ويروِّع المطمئن ويملاً الأرض شراً وإثماً، ثم أنتم بعد ذلك
تصيمون الأيام وصمته، وتحملون عليها وزره وتسبونها بما
كان خليقاً أن يسبَّ هو به. أصلحوا أنفسكم فقد فسدت،
وبصروا ظالمكم فقد أعماه الغرور. أرشدوه إلى أنه يمد إلى
الحياة أسباباً سيقطعها الموت، وأن ما يدخر من الورق
والنُّضار، وما يحتمل في سبيله من الأهوال والأخطار، وما
يقتنى من دهم الخيل وغرّها، ومن قوارح الإبل وبزلها، لن
تدفع عنه غارة الأيام، ولن تردّ عنه صولة الزمان. لقد
عجزت أن تقيم قدّه المنحني وعوده المناد، وإنها عن دفع
الموت لأضيق باعاً، وأقصر ذراعاً.

لِيَشْغَلْكَ مَا أَصْبَحْتَ مَرْتَقِباً لَهُ

عَنِ الْعَيْبِ يَبْدُو وَالْخَلِيلِ يُؤَيَّبُ

فَمَا أَذْنِبُ الدَّهْرُ الَّذِي أَنْتَ لَائِمٌ

وَلَكِنْ بَنُو حَوَاءَ جَارُوا وَأَذْنَبُوا

سیدخل بیت الظالم الحتفُ هاجماً
ولو أنه عند السّمائك مُطنّبُ
وقد كان یهوی الطعنَ أمّا قنائه
فذاتُ لَمیّ والأُخرصُ كالنابِ أشنّبُ
ودرُعُ حدیدٍ عنده درُعُ کاعبِ
من الودِّ واسمُ الحربِ هندٌ وزینبُ
ویطوي الملا بعد الملا فوق کُوره
إذا العیسُ تُزجى والسوابقُ تُجنّبُ
له من فریدٍ جدولٌ إن أساله
على رأسِ قرنِ جاشٍ بالدمِ میدنّبُ
ولیس یقیم الظهْرَ حنّبَه الرّدى
قوامُ رُدینيٍّ وطرفُ مُحنّبُ

لقد أكثرت لوم الدنيا وأطلت النعي عليها ، وزعمت أنها لك ظالمة ، وعليك جائرة ، وإليك مسيئة . وما أرى أنها قد اقترفت ذنباً أو اجترحت إثماً . وما أعرف أنها ظلمتك أو أساءت إليك ، إنما أنت الظالم لنفسك المسيء إليها . تُوردها موارد الشر ، وتحملها محامل السوء ، ثم تكلف الأيام ما كنت خليقاً أن تكلفه نفسك ، وتعيبها بما أنت فيه واقع . يلد لك أن تتكذب عليها وتصفها بما هي بريئة منه . ماذا جنت عليك الدنيا وبماذا أساءت إليك ! كل ذنبها عندك أنها حسناء فاتنة وهيفاء خلابة ، يستبيك حسننها ويستصيبك جمالها ، فأَيُّ ذنب لها في هذا الحسن ! وأي جناية لها في كلفك بها وميلك إليها ؟!

عذيري من أولئك الخداعين للناس المضلين للعقول المتكذِّبين على الأغرار ! لقد زعموا لهم أن نفوسهم خالدة ، وأنها لم تهبط هذا العالم إلا لتبتلى وتجرب ، متقلة فيه من جسم إلى جسم ، مستفيدة من هذا التنقل صلاحاً لها وتهذيباً

لأخلاقها ، وأن السعيد من هذه الأنفس سيلقى من النعمة
واللذة ما لا سبيل إلى وصفه ، وأن الشقي منها سيلقى من
الألم والنقمة ما يطهره من أدناس المادة وأدرانها. كلاً ما
أحسب أن هذا حق ، وما أرى أنه صواب ، وما أعرف أننا
نقضي أيامنا مختارين أحراراً نستطيع أن نصلح نفوسنا
ونهدبها ونسلك بها إلى السعادة طريقاً مأموناً ، إنما نحن
عبيد مقهورون ، قد أوثقت أيدينا وأرجلنا بأغلال متينة
وأمراس محكمة ، فنحن نرسف فيها مجذوبين إلى ما لا
نحب ، مكرهين على ما لا نرضى.

ليس في هذه الحياة لنا خير ولا سعادة ، إنما هي الشر
الدائم والشقاء المقيم. وأقسم لو أن للحس في ميت بقاءً
وللشعور فيه وجوداً ، لقد كنا أحرىء أن نجد لطعم الموت
من العذوبة وملاءمة الطبع ما لا نجده في الحياة.

نَقِمْتَ عَلَى الدنِياِ وَلا ذَنْبَ أَسْلَفْتِ

إِلَيْكَ فَأَنْتِ الظَّالِمُ الْمُتَكَدِّبُ

وَهَبْهَا فَتَاةً هَلْ عَلَيْهَا جَنَايَةٌ

بِمَنْ هُوَ صَبُّ فِي هَوَاهَا مُعَدِّبُ

وقد زعموا هذي النفوسَ بواقياً
تَشَكُّلٌ في أجسامها وتَهَدُّبُ
وتُثَقِّلُ منها فالسعيدُ مُكْرَمٌ
بما هو لاقٍ والشقيُّ مُشَدَّبُ
وما كنتَ في أيام عيشك منصفاً
ولكن مُعْنَى في حبالك تُجَدَّبُ
ولو كان يبقى الحسنُ في شخصٍ مَيِّتٍ
لآليتُ أنَّ الموتَ في الفم أعذبُ

- 40 -

لَعَمْرُكَ مالي في هذه الحياة أمل أسمو إليه ولا رجاء
أطمع فيه. ومالي فيها راحة أبتغيها ولا لذة أكلف نفسي لها
العناء. وإنني على طول الأيام واختلافها وعلى بقاء الدهر
وخلوده، لَمُجْدِبٌ من كل خير، بريء من كل صالحة. وما
أرى أن لشيء في هذه الحياة حظاً من سرور، ولا أن في هذه

الدنيا مصدراً لابتهاج. إنما هي حزن قد ضرب أطنابه ومدّ
رواقه على كل شيء. ألم تر إلى الغرورين المفتونين كيف
يسمّون صياح الحمام غناءً وتعريداً، وقد كان خليقاً أن
يسمى بكاء وإعوالاً!

فإنّ حوادث هذه الحياة كثيرة، ومعظمها على الناس
فظ غليظ، وأقلها الحَدْبُ الشفيق. فما أجدر أصوات هذه
الحمام أن تكون بكاءً على المكرويين ورثاءً للمنكويين!
وكيف ينعم الإنسان بحياة أو يسعد بلذة وهو لا يرى
حوله إلا أديباً إلى مآدبة الموت، مدعواً إلى مآدته، مكرهاً
على أن يغشاها ويتزوّد منها!!

لعمرك ما بي نُجعةٌ فأرومها

وإني على طول الزمان لمُجربُ

حملتُ على الأوّلَى الحمامَ فلم أقلُّ

يُغنيّ ولكن قلتُ بيكي ويندُبُ

وذلك أن الحادِثاتِ كثيرةٌ

وغالبهنّ الفَظُّ لا المتحدّبُ

وكلُّ أديبٍ أي سيُدعى إلى الردى
من الأدب لا أن الفتى متأدب

- 41 -

ويح الإنسان! ما أشدَّ غروره وأكثر الرياء فيه! ما
أعظم انخداعه بالأسماء والأشكال، وأقل اطلاعه على
الحقائق واعتباره بالمواعظ!! لقد قام منه في المحارِب أناس
يعظون ويخوِّفون ويُذرون ويبيشرون، ففتته مقامهم وخدعه
منطقهم. ولو أنه حقق فيهم النظر وأجاد عنهم البحث، لما
وجد بينهم وبين أولئك الشُّرب يُطربون أنفسهم بالألحان
ويغذونها بابنة الحان، فرقاً ولا خلافاً.

فإن صلاة لا يراد بها إلا الكيد والرياء لا تتفع صاحبها
شيئاً ولا تغني عنه قليلاً ولا كثيراً. وربما كان معتمد
المعصية أقرب إلى الله من متكلف الطاعة.

كلُّ في نفسه ضال جائر، يسلك إلى الفناء المطلق
سبيلاً قد سلكها الناس من قبله. هنالك في تلك الغاية

الخالدة يستوي التقي والشقي ويأتلف الخير والشرير. ألا
فلتعرفوا أنفسكم أيها الناس، ولتكفوا من غروركم؛
فإنما أنتم مادة تتشكل أشكالاً مختلفة، وتتصور صوراً
متباينة. لا تفخروا! فما أعرف لكم في الفخر حقاً، إنما
أنتم من الفخار خلقتم وإلى الفخار تعودون. ألا رب فآخر
منكم قد ملأ فمه الفخر، وقد ألع بما يقدمه إليه الناس
من المدح والثناء، قد عاد إلى أصله ورجع إلى مادته بعد
حين، واتخذ الناس منه الأنية بيتذلونها في الطعام والشراب
متقلين بها من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر.

ويحي له! لو درى ما سيصنع به أو عرف أنه سيتغرب
بعد موته، فتتقل الأنية المتخذة من جسمه في الأقطار
والأقاليم، لما عني بالفخر ولا هام به، ولما كد نفسه
وشقاها فيما تكلفه الحياة من آمال وأخطار.

لعل أناساً في المحاريب خوفاً

بأي كناس في المشارب أطربوا

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها

فتاركها عمداً إلى الله أقرب

فلا يُمَسِّ فَخَّاراً من الفخر عائدٌ
إلى عنصر الفخار للنفع يُضربُ
لعل إناءً منه يُصنعُ مرةً
فيأكل فيه مَنْ أراد ويشرب
ويُحمل من أرضٍ لأخرى وما درى
فواهاً له بعد الِإلى يتغرَّب

- 42 -

ما بال أناس يؤثرون على أنفسهم، فيشَقُونَ ليسعد
الناس، ويكدُّون ليرتاح غيرهم، معتمدين على قضايا
كاذبة، متمسكين بقواعد شائعة، لا يؤيدها عقل ولا
يدعمها دليل، قد خلطوا بين الحقوق ولم يحسنوا تقدير
الأمور، فزعموا أن إكرام الصديق واجب، وأن إيثاره
بالفضل حق محتوم. وذلك شيء لا شك فيه، ولكن إكرام
نفسى ينبغي أن يكون أوجب عليّ وألزم لي من إكرام
غيري.

لقد ضلت العقول وسفهت الأحلام. وأقسم ما أرى في
الإنسان إلا خليقاً بالذم حرياً بالعيب، سواء في ذلك الفقير
المتهن والملك ذو الجلال.

ليت هذا النجم المتألق، وهذا البدر المنير، يعقلان
فيعجبان لما وقع فيه الإنسان من خطل الآراء، وسفه الأحلام.

إذا كان إكرامي صديقي واجباً

فإكرام نفسي لا محالة أوجبُ

وأحلف ما الإنسان إلا مُذمّمٌ

أخو الفقر منا والمليكُ المحجّبُ

أيعقل نجم الليل أو بدرٌ تتمّه

فيصبح من أفعالنا يتعجب

لقد قدّر عليّ البقاء، وحُجِبَ عني الغيب؛ فأنا بالبقاء
كَلِيفٌ، وبما مضى جاهل. وربما كان الموت خيراً لي وأبقى
عليّ من الحياة. وربما كان موت الإنسان إدناءً له من ربه.
قد نحب البقاء خوفاً من الموت. ولعمري ما البقاء إلا سُمٌّ نافع
قد ملئ بأنواع الأمراض والأسقام وألوان الآفات والعلل.

ولو أن البقاء على كراهته ميسور، والخلود على آلامه
متاح، لقد كان لنا في أن نرغب فيه. ولكن الموت واقع
والحمام محتوم، سواء في حكمه المقيم والظاعن،
والحاضر والبادي. أجل! إن الموت لواقع لا بد منه، وإنما نحن
لهذه الأرض غداء، تطلبنا على أن نكون لها طعاماً ورياً،
كما نبتذل نحن غيرنا لهذين الغرضين.

إن الإنسان لمغرور مخدوع، وإنه على ذلك لكذوب
مُفْتَرٍ. لم يدع شيئاً إلا تناوله بكذبه، حتى إن الشمس لم
تسلم من خطل أمية بن أبي الصلت، فزعم أنها لا تشرق حتى
ينالها الضرب والإيذاء. لقد صغرت العقول وقصرت الأنظار.

ولقد كان حقاً على هؤلاء الناس أن ينظروا إلى هذه الشمس وأمثالها من الكواكب والنجوم من حيث هي عاملة على إهلاكهم مُجدة في إفنائهم. فما أرى أن هذا الهلال قد حُرب وعُطف إلا ليكون رمحاً يُطعنون به. وما أرى أن هذا الصباح قد استطل وأضاء إلا ليكون سيفاً مسلواً على رؤوسهم، يُورد كلاً منهم حوض المنون إذا انقضى أجله وحانت مدته.

بقيتُ وما أدري بما هو غائبُ

لعل الذي يمضي إلى الله أقربُ

تودُّ البقاء النفسُ من خيفة الردى

وطولُ بقاء المرء سَمٌّ مُجربُ

على الموت يجتاز المعاشرُ كلُّهم

مقيمٌ بأهليه ومن يتغربُ

وما الأرضُ إلا مثلنا الرزقُ تبتغي

فتأكل من هذا الأنامُ وتشربُ

وقد كذبوا حتى على الشمس أنها
تُهَان إذا حان الشروق وتُضْرَبُ
كَأَن هَلَالاً لَاحَ لِلطَّعْنِ فِيهِمْ
حَنَاهُ الرَّدَى وَهُوَ السَّنَانُ المُحْرَبُ
كَأَن ضِيَاءَ الفَجْرِ سَيْفٌ يَسُئُهُ
عَلَيْهِمْ صَبَاحُ بِالمُنَايَا مُذْرَبُ

- 44 -

أذْهَبُوا أَيُّهَا الأَغْنِيَاءُ دُورَكُمْ بِالنُّضَارِ الوَهَاجِ، وَزِينُوهَا
بِمَا شِئْتُمْ مِنْ بَدِيعِ الرِّيَاشِ؛ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ عَنْهَا ذَاهِبُونَ وَلَهَا
تَارِكُونَ.
مَا أَرَى إِلَّا أَنْ فِي أَجْسَامِكُمْ قَبْساً مَهْمَا أَضَاءَ فَلَا بَدَّ
مَنْ أَنْ يَطْفَأَهُ المَوْتُ وَيُخَمِّدَهُ الرَّدَى؛ فَمَا التَّهَابَةُ إِلَّا إِلَى حِينٍ،
وَمَا اشْتَعَالُهُ إِلَّا إِلَى مَدَى.

أُتْذَهَبُ دَارُ بِالنُّضَارِ وَرَبُّهَا
يَخْلِفُهَا عَمَّا قَلِيلٍ وَيَذْهَبُ
أَرَى قَبْساً فِي الْجِسْمِ يُطْفِئُهُ الرَّدَى
وَمَا دَمْتُ حَيًّا فَهَذَا يَتَلَهَّبُ

- 45 -

ما أخلق النفس باللوم! وما أحرأها بالثريب! وما أجدر
اللبيب العاقل والحكيم الحازم أن يمنحها منهما حظاً غير
مقطوع وعطاءً غير مجدود. فقد كلفتُ بما في هذه الحياة
من باطل، وحرصت على ما لها من زينة فانية ونعمة غير
خالدة. ولست أدري ما الذي يكلف به الإنسان من الثروة
والغنى، وهو يعلم أنه من التراب خُلق وإلى التراب يعود. ما
أجد حرص ابن التراب على الغنى والإتراب إلا حمقاً. وما
أرى شغف ابن الفناء بالخلود والبقاء إلا سفهاً.

لقد آن للعقول الضالة أن تهتدي، وللنفوس الغافلة أن
تُفِيق، وللأذان الصمّ أن تسمع؛ فما زالت هذه الحياة منذ

كانت تتطرق بكل لغة وتُعرب بكل لسان، مبرهنَةً على ما
اشتملت عليه من شر، ومشيرةً إلى ما شُغِفَتْ به من سوء.
لقد اختبرتها فأحسنت اختيارها، وبلوتها فأتقنت
بلاءها، لقد أحطت بأسرارها وظهرت على خبيئتها؛ فما أرى
فيها شيئاً أنكره أو أعجب له أن تدهشني غرابته، على
حين أرى الحمقى المضللين والبُله المغفلين تفجؤهم منها
فاجئةً الخير أو الشر لم يكن لهم بها عهد، فيقضون العجب
ويلجؤون في الدهش والاستغراب.

على رسلكم أيها الناس! إنما خيركم من هذه الحياة
لباطلٌ وزور، وإنكم حين تُعجبون به لتعجبون بشيء لم يقيم
على قاعدة ولم يعتمد على أصل ولا حكمة. إنما هي
حركات حمق ونزوات خطل، ما ينبغي للعاقل أن يرجو منها
خيراً أو ينتظر منها نفعاً. ما أرى دنياكم هذه إلا أشد حمقاً
وأكثر خطلاً من دجاجة ليس لها حلم راجح ولا عقل
صحيح، قد حُرمت رزانة الحركة ووقار المشية، فهي نزاة
وثابتة، ونزقة طائشة، تحكمها المصادفة أكثر مما
يحكمها التدبير. فما أجدر العالم بها باليأس منها والقنوط
من مستقبل أمرها!

أيها الكَيفُ بالحياة المشغوف بالبقاء! لقد تيمَّنتُك هذه
الدنيا واستأثرت بلبِّك، فهيمتَ بها من حيث ينبغي أن تصدَّ
عنها وأن تستبدل ببكاء الرغبة فيها بكاء الرهبة منها. إنك
لتهوى العلة المهلكة والداء المميت. إن حركة الشمس من
المشرق إلى المغرب ليست إلا مقربة لأجلك ومقصرة لحياتك.
فكر في أمرك وأحسن تدبير نفسك، تجد أن أنفاسك التي
تتنفسها وحركاتك التي تتحركها مستلذاً بها ذوق الحياة
مستعذباً بها طعم العيش، ليست إلا مفنية لك، تباعد ما
بينك وبين المهد، وتقارب ما بينك وبين اللحد. ذلك قضاء
واقع وحكم نافذ، ليس لك منه عاصم ولا نصير. أترى أن
سُهَيْلاً هذا النجم المتلألئ في السماء الذي هو أحرى منك
بالبقاء وأدنى منك إلى طول المدة، واجدٌ له من الحوادث
نصيراً ومن الكوارث ملجأً؟ كلا! ولكنها عقول ضالة،
وأنظار قصيرة، ونفوس سبقتها إلى الهدى تلك الإبل الجادة
في سقي الأرض، والبقر العاملة في حرثها.

عجياً لكم أيها الناس! لقد اطمأننتم إلى الحياة
واستنتمتم إلى لذاتها، فما منك إلا مغرور يملؤه الأمل ويحدوه
الرجاء. لقد أمنتهم بسطوة لا تُؤمَن، وركنتم إلى ما لا ينبغي

أن تركنوا إليه. لقد كان حقاً عليكم أن تفرقوا من مطلع
النهار ومقدم الليل، وأن تسيئوا الظن بحياة ما أراها إلا
مرغبة في الموت مغرية بحبه محرّضة عليه. قصّروا من
آمالكم، وآثروا أنفسكم بالدعة والراحة حتى تتقضّى
أيامكم القليلة.

اغمدوا سيوفكم واركزوا رماحكم، ولا يبلغ منكم
حب الحياة والشغف بها أن يتعجل بعضكم منايا بعض.
أريحوا أنفسكم! لا يقتل بعضكم بعضاً؛ فإن للموت
الفطري يداً أمهر من أيديكم في القتل، وحُساماً أمضى من
سيوفكم في الهام، وسناناً أثقب من أسننتكم للصدور.
أريحوا أنفسكم من هذا العناء؛ فإن الموت سيريح بعضكم
من بعض. كلكم ميت، وكلكم تارك أصدقاءه وأخلائه،
لا يحفلون به ولا يأسفون عليه. وما هي إلا ساعة وداعه ثم
يعودون من اللهو واللعب ومن الغيّ والمجون إلى ما كانوا
فيه.

غدوتُ على نفسي أُكْرْتُ جَاهِداً

وأمثالها لام اللبيب المثرّب

إذا كان جسمي من ترابٍ مألّه
إليه فما حظّي بأني مُتربُّ
وما زالت الدنيا بأصنافِ ألسنٍ
تُبَيِّنُ من غير الجميل وتُعرب
إذا أغربت يوماً برزءٍ على الفتى
فليست على نفسي بما حُمّ تُعرب
وجربتها أمّ الوليد لطامع
ويأسُ من أم الوليد المجرب
يحقّ لمن يهوى الحياة بكاؤه
إذا لاح قرن الشمس أو حين تغرب
وما نَفَسٌ إلا يُباعد مولداً
ويُبدني المنايا للنفوس فتقربُ
فهل لسُهَيْلٍ في معدك ناصرٌ
إذا أسلمته للحوادث يعربُ

وأهدى إلى نهج الهدى من معاشر
نُواضِحُ تُسَنُّوْ أَوْ عَوَامِلُ تُكْرَبُ
أَلَا تَفَرِّقُ الْأَحْيَاءَ مِمَّا بَدَأَ لَهَا
وَقَدْ عَمَّهَا بِالْفَجْرِ أَرْزَقُ مُغْرَبُ
وَشَفَّ بَقَاءً صِرْتُ مِنْ سَوْءِ فَعْلِهِ
أَهَشَّ إِلَى الْمَوْتِ الزُّؤَامُ وَأَطْرَبُ
فَشِيمُ صَارِمًا وَارْكُزُ قَنَاءَةً فَلِلرَّدَى
يَدٌ هِيَ أَوْلَى بِالْجَمَامِ وَأَدْرَبُ
أَفْضُ لِهَامَاتٍ وَأَرْمَى بِأَسْهَمِ
وَأَطْعَنُ فِي قَلْبِ الْخَمِيسِ وَأَضْرَبُ
أَرَى مُطْعَمَ الرَّمْسِ اللَّهُمَّ خَلِيلِهِ
سَيَأْكُلُ مِنْ بَعْدِ الْخَلِيلِ وَيَشْرَبُ

ما أحرصَ الناسَ على تصديقِ الغنيِّ والثقةِ بصاحبِ
الثراءِ، قد أقبلتَ عليه الأيامُ فأسبغتَ عليه من النعمةِ ثوباً
ضافياً خلأباً، لم يكد يظهر فيه صاحبه حتى خلب العقولَ
والألبابَ، فخيَّلَ إليها أن باطله حق، وكذبه صدق،
وضلاله هدى.

حدَّثني بما شئتَ من تضليلٍ وتغرييرٍ، وأوهمني بما
استطعتَ من سطوةِ وسلطةِ، وخيَّلَ إليَّ أنك تملكُ نفعي
وضرري وتقدرُ على خيرِي وشرري؛ فإنك عندي كاذبٌ غيرُ
صادقٍ ومائنٌ غيرُ أمينٍ. لقد فقدتَ القدرةَ فما تستطيعُ عملاً
وما تقدرُ على شيءٍ. إن أنتَ في الحياةِ إلا عبدٌ مقهورٌ
مستذلٌّ، قد خيَّلَ إليه أنه قادرٌ مختارٌ فعالٌ. لقد خدعك
الخيالُ وكذبتك المنى. أظهرُ النسكِ والعبادةِ، وأعلنُ الهدى
والطاعةِ، وتجافَ بين أيدي الناسِ عن نعيمِ الحياةِ ولذاتها،
وحدَّثنا أنك وفيَّ بالعهودِ حافظٌ لغيبِ الصديقِ، فما أنتَ في
ذلك إلا مخلوقٌ منتحلٌ. إنك لتتزهَّدَ بين أيدينا عن لحمٍ

الحيوان، ولكننا نكاد نلمس بأيدينا قَرَمَكَ إلى لحم
الإنسان، ولاسيما إن كان صديقاً أو خليلاً.
إذا أقبل الإنسان في الدهر صُدِّقْتُ
أحاديثه عن نفسه وهو كاذبُ
أتوهمني بالمكر أنك نافعي
وما أنت إلا في حبالك جاذبُ
وتأكل لحم الخُلِّ مستعذباً له
وتزعم للأقوام أنك عاذب

- 47 -

ألا لا تغبط مُنعماً بنعمته، ولا تحسد سعيداً على
سعادته؛ فليس في الحياة ما يُغَبِّطُ به ولا في العيش ما يُحَسَدُ
عليه. بسَّت الحياة تلمؤها اللذة وتُفعمها النعمة ثم يعقبها
الموت والهلاك!

أجل! ليس في الحياة شيء يُحمد. فما أجد الحسن الذي هو أخص مميزاتنا وأوضح الدلائل عليها إلا موقعا لصاحبه في السوء ومنتهياً به إلى المكروه. وكيف تُحمد الحياة أو يُرغب فيها وما أرى صاحبها إلا غرضاً مستهدفاً لجيش من الزمان يعمل ويجد في عمله للفناء، من غير أن يُسمع له لَجَبٌ ولا صخب.

أفّ لِقَصْرِ العقول وسَفَهِ الأحلام! لقد أغرقنا في الغرور، وتعلّقنا بصغار الأمور، حتى لو عقلت الأرض أو فهمت فرأت ما نحن فيه من ترك للنافع وتشبث بالضرار، ومن عدول عن كبار الأمور إلى صغارها، لقضت العجب مما نحن فيه من حمق وسخف.

نرجو السعادة ونكَلّف بها، وإنما نرجو متعذراً ونكلف بمحال. وإنما السعادة ألا نوجد وقد وجدنا، وألا نخلق وقد خُلّقنا. فما حرصنا على ما لا سبيل إليه! وما رغبتنا فيما لا قدرة عليه! وهل رأيت شهراً من الشهور قد ضاق بنفسه وأحب أن يستبدل به غيره، فودّت جُمادى لو أنها رجب.

إلا إن الشقاء محتوم لا مفرّ منه، والشر موجود لا مندوحة عنه. وكلّما أظهر الناس من حب للخير أو حرص على المعروف، وكل ما أعلنوا من نُسك وطاعة أو زهد وعبادة، فليس إلا ضروباً من الرياء وألواناً من الخديعة، ساقطهم إليها غرائزهم، وأكرهتهم عليها طبائعهم؛ فهم كالعود لا يلحى نفسه وإنما يلحاه الناس. لم يرغبوا في الخير وإنما اضطروا إلى إظهاره، ولم يكلفوا بالبر وإنما ألجئوا إلى انتحاله. لقد يبهرك نُسك الناسك فتحسبه إنما تتسك للطاعة، ويعجبك احتجاب المحتجب فتظنه إنما احتجب للعبادة. كلا! ما تتسك من تتسك إلا للخداع، وما احتجب من احتجب إلا ليخلو بالنكراء.

أيتها النفس الضيقة بما في هذه الحياة من شرور، والمتبرّمة بما في هذا الناس من آثام، خفضي عنك ورفهي عليك؛ فتلك طبيعة الحياة، وهذه غريزة الناس، لا سبيل إلى تغييرها ولا قدرة على إصلاحها، ولا حرّم إلا بالصبر على احتمالها والتجلد على ما يأتیان به من جرائم وسيئات.

لا يُغْبَطَنَّ أَخُو نُعْمَىٰ بِنِعْمَتِهِ
بئس الحياة حياةٌ بعدها الشُّجْبُ
والحِسُّ أَوْقَعَ حَيًّا فِي مَسَاءَتِهِ
وللزمان جِيوشٌ مَا لَهَا لَجْبُ
لو تعلم الأرضُ مَا أفعالُ ساكنها
لطال منها لما يُوْتَىٰ بِهِ الْعَجْبُ
بدء السعادة أن لم تُخَلِّقِ امْرَأَةً
فهل تودُّ جُمَادَىٰ أَنهَا رَجَبُ
ولم تُثَبِّ لخيَارٍ كان مُنْتَجِبًا
لكنك العُودُ إِذ يُلْحَىٰ وَيُنْتَجِبُ
وما احتجبتَ عن الأَقْوَامِ مِنْ نَسكِ
وإنما أنتِ لِلنُّكْرَاءِ مُحْتَجِبُ
قالت لي النفسُ إِنِّي فِي أذَىٰ وَقَدَىٰ
فقلت صبراً وتسليماً كذا يجب

عجبت للناس يعيبوني حيّاً، ويُثنون عليّ ميتاً. لا
يحمّدون صاحب الرأى إلا حين يغيب عنهم شخصه، فلا
يسرّه منهم حمد ولا يُرضيه منهم ثناء ولو أنهم أدّوا إليه حقه
وعرفوا له صنيعته، لكان له من رضاهم عنه وثنائهم عليه
واستجابتهم لدعائه في حياته مشجّع على النصح لهم ومرغّب
له في هدايته. ولكنا جميعاً في هذه الحياة مرضى معتلّون،
داؤنا حب النفس، وعلتنا الحرص على الحياة. وهذه العلة
وذلك الداء هما اللذان يوقعاننا فيما نكره من كفر النعمة
وجحود الجميل.

أعيّبوني حيّاً ثم قام لهم

مُنن وقد غيّبوني إن ذا عجبُ

نحنُ البريّةُ أمسى كانا دَنفأ

يحب دنياه حبّاً فوق ما يجب

- 49 -

لا يَخْدَعَنَّكَ من الناس عذوبةُ الحديث وحلاوة المنطق؛
فإنك تعاني من أخلافهم دون ذلك عشرة مرة وعذاباً أليماً.
إنما أخلاقهم شرٌّ لا خير فيه، وإنما ألفاظهم زينة كاذبة تنم
على ما دونها من كذب ورياء.

إنهم لعشاق أسماء وأخلاء ألفاظ، ليس لهم في المعاني
والحقائق نظر صحيح؛ فهم كذبة منافقون. يسمعون النجم
والهلاك والفرقد والسماك، وما لهم في هذه التسمية علة
مفهومة ولا عابث معقول. قد عَظُمَتْ آمالُهم، وصغرت
أعمالهم، فتعلقوا بأهداب الشمس يبتغون الخير، وإنما
يتعلقون في الحقيقة بأسباب الشر والإفك ووسائل الغيِّ
والفجور.

أخلاقُ سكانِ دنيانا مُعَدِّبَةٌ

وإن أتتك بما ستعذب العذبُ

سَمَوْا هلالاً وبدراً والندى وضحى

وفرقداً وسماً كأشد ما كذبوا

ولم يُنطُ بحبال الشمس من نظير
إلا له في حبال الشرُّ مُجْتَذَبُ

- 50 -

لقد اشتمل الضعف على الناس، حتى إن أحدهم
لتعرض له الحاجة هو إليها مضطر وعليها حريص، وقد
سنتحت لنيلها الفرصة ولكن الحياء، وهو لون من ألوان
الضعف، يمنعه ويحول بينه وبين ما يريد. ذلك الضيف يُلمّ
بك فتقرّيه ظهراً، حتى إذا أمسى الليل فسألته عن ميله إلى
الطعام ورغبته فيه، أنكر ذلك وزعم أنه شبعان ممتلئ،
وإنه في الحق لساغب حرباً، وجائع لغيباً. فإن كنت من أهل
الإحسان إلى الناس والبرّ بهم، فأزلف إليهم إحسانك وبرّك
من غير أن تشاورهم فيه؛ فإن مشاورتك إياهم في ذلك ضارة
لك ولهم: تضريك لأنها تمنعك شيئاً تشتتبه، وتضرهم لأنها
تحمّلهم من الحياء والضعف على الحرمان وسوء الحال.

أحسن إليهم ما استطعت، وقدم إليهم ما وجدت. لا
تصغر على الإحسان حقيراً، ولا تزدر هيئناً. فحسبك من
الإحسان إلى الجائع أنك أخدمت جوعه واطفأت سغبه؛ فأما
الذاذه بألوان الطعام المختلفة الطيبة فشيء فوق الحاجة
تُحَيِّن له الفرصة وتُتريص به الطاقة والمقدرة.

لا تسأل الضيف إن أطعمته ظُهِراً

بالليل هل لك في بعض القرى أرب

فإن ذلك من قول يُلقنه

لا أشتهي الزاد وهو الساغب الحرب

قدم له ما تأنى لا تُؤامره

فيه ولو أنه الطرثوث والصرب

المحتوى

5.....	طه حسين تقديم/ مالك صفور
27.....	مقدمة المؤلف

**إصدارات سلسلة
كتاب الجيب السابقة**

سنة الكتاب	اختيار الكتاب	تقديم الكتاب	عنوان الكتاب	٢
2006	.	.		1
2006	.	.		2
2006	.	.		3
2007	.	.		4
2007	5
2007	.	.		6
2007	.	.	-	7
2007	.	.	. / - - - - .-	8
2007			/ ()): (9
2007		.		10
2007		.		11
2007		.		12
2007	.	.		13

سنة الكتاب	اختيار الكتاب	تقديم الكتاب	عنوان الكتاب	م
2007	.	.		14
2008		.		15
2008		.		16
2008		.		17
2008		.	1944	18
2008		.		19
2008		.	-	20
2008		.		21
2008		.	-	22
2008		.		23
2008		.		24
2008		.		25
2009		.	-	26
2009	.	.	-	27
2009	.	.	-	28
2009	.	.	-	29

سنة الكتاب	اختيار الكتاب	تقديم الكتاب	عنوان الكتاب	م
2009	.	.	-	30
2009	.	.	-	31
2009	.	.	-	32
2009	.	.	-1971	33
2009	.	.	- -	34
2010	.	.		35
2010	.	.	-()	36
2010	.	.	()	37
2010	.	.	- -	38
2010	.	.	-	39
2010	.	.		40
2010	.	.	-	41
2010	.	.	-	42
2010	.	.	-	43
2010	-	-	.	44

سنة الكتاب	اختيار الكتاب	تقديم الكتاب	عنوان الكتاب	٢
2011	.	.		45
2011	.	.) (46
2011	.	.	004 -	47
2011	.	.		48
2011	.	.		49
2011	.	.	: -	50
2011	.	.		51
2011	.	.		52
2011	.	.		53
2011	.	.		54
2012	.	.	-	55
2012	.	.	-	56
2012	.	.	: -	57
2012	.	.) (1968 -	58
2012	.	.	1	59

سنة الكتاب	اختيار الكتاب	تقديم الكتاب	عنوان الكتاب	م
2012			2	60
2012			-	61
2012			-	62
2012				63
2012	.	.	-	64
2012				65
2012				66
2012				67
2013	.		()	68
2013	.			69
2013		..		70
2013		..		71
2013				72
2013	.	.		73
2013		..		74
2013		.		75
2013		..		76
2013		..		77
2013		.		78

سنة الكتاب	اختيار الكتاب	تقديم الكتاب	عنوان الكتاب	م
2013		.		79
2014		..		80
2014		..		81
2014		..		82
2014	..			83
2014	..			84
2014	..			85
2014	..			86
2014	..			87
2014		..		88
2014	..			89
2014		..		90
2014		..		91
2015		..		92
2015	..			93